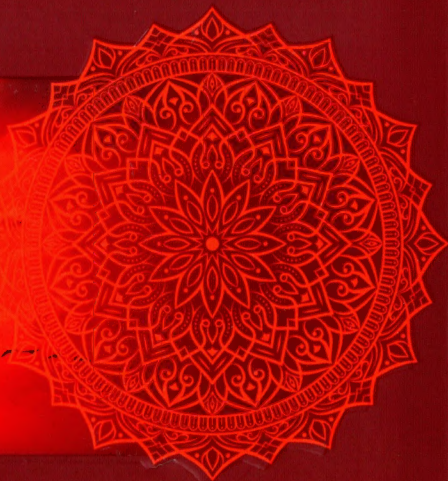


الثَلَاثُ الْإِخْيَارُ

فِقْهُ آخِرِ الْعُمَرِ



تَأَلَّفَ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ هَاجِمٍ الْقَائِمِي



الطبعة الثانية

الثَلَاثُ الْآخِرُ
فَقَّهُ آخِرِ الْعُمُرِ

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، 1445هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغامدي، عبد اللطيف بن هاجس

الثلاث الأخير (فقه آخر العمر)/ عبد اللطيف بن هاجس الغامدي - ط2

الرياض - 1445هـ

144 ص: 20x14 سم

ردمك: 978-603-8404-78-2

رقم الإيداع 1445/8074

رقم الإيداع: 1445/8074

ردمك: 978 - 603 - 8404 - 78 - 2

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

1445هـ - 2024م



المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم المودد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011

0551523173 @daralhadarah

زوروا متجر الحضارة

daralhadarah.net

الثَلَاثُ الْآخِرُ

فِقْهُ آخِرِ الْعُمُرِ



تَأَلَّفَ

عَبْدُ الْوَلَّيْفِ بْنُ هَاجِمٍ الْغَامِدي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختصرات



﴿ **وزبدة الكلام:** من كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة، فالعبرةُ بكمال النِّهاياتِ، لا بنقص البدايات..

﴿ **ونهاية المطاف:** عش للدنيا على قدر مرورك بها، وعش للآخرة على قدر خلودك فيها!

﴿ **وتناج المقال:** القناعة كنز الفقراء، والجشع فقر الأغنياء..

﴿ **وعمدة الكلام:** دوام الحال من المحال، فعش حياتك في كلِّ مرحلة بأطيب حال..

﴿ **ومقتضب التحرير:** مصيبة الحياة الدنيا أنك لا تعرف قيمتها إلا إذا انتهت مدّة بقائك فيها!

﴿ **وثمره الحديث:** آمن ما تكون السفينة عندما تكون على الشاطئ، لكنها لم تُصنع لهذا!

﴿ **وصفوة الخطاب:** غَسِّلْ قلبك أولى من غسل قدمك، ونظافة صدرك أهمُّ من نظارة ثوبك!

﴿ وجوهر الكلام: خليلك الصّادق لا تعرفه إلا في المضايق! ﴾

﴿ ولُبَّابُ الحوار: اترك ما يذكّر بك بعد رحيلك، حتى يقال
عنك: مرّ من هاهنا، وهذا الأثر!

﴿ ونُخبَةُ العلم: من الفأل السيء أن يظلّ الطّبع السيء مع
صاحبه حتى يدخل به إلى قبره!

﴿ وحكمة النّقاش: قشور الفاكهة لا تُغني عن لبّها، وسعادتك
من الدّاخل، فلا تبحث عنها في الخارج!

﴿ ومختصر الخبر: مُلاعب الأفاعي لا يسلم يوماً من لدغها!

﴿ وموجز النبأ: لا تمت قبل الموت!

﴿ وخلاصة البحث: من جاء إلى الدنيا ثم لم يزد فيها فهو
زائد عليها.

﴿ وصميم القول: أنت تخوض في بحر لجّي، فلا تكن روحك
آخر من تسعى في انقاذها من الغرق!

﴿ ومختصر الحديث: صاحب من تتعلّم الصّبر منه لا من
تتعلّم الصّبر عليه.

﴿ **وجوهر المسألة:** لا تكن لينا فتُعصر، أو قاسياً فتُكسر، وخذ ما تيسر، ودع ما تعسر، فطلب الكمال من المحال..

﴿ **وحصيلة التحقيق:** السُّقوط لا يحتاج للكثير من الجهد، فقط! أطلق لنفسك عنانها، فإذا بالحضيض عنوانها..

﴿ **ومُلخَص البحث:** نفسك ميدانك الأول، فلا تجعلها آخر شيء تدافع عنه، وذاتك حصنك الحصين فلا تهدمها من الداخل..

﴿ **وفصل الخطاب:** لا تُدخل أنفك في عشِّ الدبابير فلها أنوف لاسعة!

﴿ **ونخبة الفكر:** أنت سليل ظنونك: فمن ساءت ظنونه ساءت أفعاله، ومن حسنت ظنونه حسنت أعماله..

﴿ **وجملة القول:** لو قيل لك: إنَّ القيامة تقوم غداً، ماذا كنت ستصنع اليوم؟! افعله الآن، ولا تقل: فات الأوان، فالوقت حان..

﴿ **ولباب الفكرة:** ثمرة الغد هي: حُلُم الأمس، وزرع اليوم..

﴿ **وبيت القصيد:** بيوت العنكبوت أوهن البيوت، وهي أقوى أسلحتها للوقية بفرائسها، وكذلك الهموم والغموم تنسج خيوطها حول فرائسها، فلا تكن من ضحاياها..

﴿ **ولبّ الموضوع:** من راقب ما في أيدي الناس لم ير ما في يده، فعينه مشغولة بغيره، ومات همًا وقضى غبنًا، وأرداه الطمع والجشع..

﴿ **وتمام الكلام:** أنت أولى الناس بمالك، فلا تكن كشجرة القرع، تُنبت في أرض وتثمر في أخرى..

﴿ **وجامع المعنى:** هنيئًا لمن مات وماتت ذنوبه معه!



المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا، والصلاة والسلام على من بعثه الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فقد قال الفضيل بن عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجل: كم أتى عليك؟ قال: ستُّون سنة، قال: فأنت منذ ستِّين سنة تسير إلى ربِّك ويوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال له الفضيل: أتعرف تفسيره؟ قال الرجل: فسره لنا يا أبا علي، قال: فمن علم أنه عبدٌ لله، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول فليعدَّ للسُّؤال جوابًا، فقال الرَّجُل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة، قال:

ما هي؟ قال: تُحسن فيما بقي يُغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي^(١).

هذا القول للفضيل خلاصة ما سأقوله لك في هذه الرسالة. فما دمت قد جاوزت سنَّ الأربعين، فأنت - في الغالب - تعيش في الثُلث الأجلِّ من عمرك والأجمل في حياتك، وتقضي أهمَّ مرحلة لك في زمن وجودك بهذا الوجود، وكما أن الثمرة في ثلث النخلة الأعلى، وليلة القدر في الثُلث الأخير من شهر رمضان، وساعة الاستجابة والصلاة المشهودة في ثلث الليل الآخر، فكذلك في ثلث عمرك النهائي ثمرة حياتك الماضية، وخلاصة تجربتك السابقة، وبقية بقائك في هذا العالم الفاني، فمدرج الأعمار ما بين السَّتين والسَّبعين، والقليل من النَّاس تمتدُّ أعمارهم لما هو أبعد من هذا السَّن..

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْدَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ آخَرَ أَجَلَهُ، حَتَّى بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»^(٢).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١١٣/٨) وجامع العلوم والحكم لابن رجب

(٣٦٠/١) وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٩٣/٢).

(٢) صحيح البخاري (٦٤١٩).

وعنه عليه السلام أن النبي ﷺ قال: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السَّيِّئِ إِلَى السَّيِّئِ، وَأَقْلُهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»^(١).

وعنه عليه السلام أن النبي ﷺ قال: «مُعْتَرِكُ الْمَنَآيَا بَيْنَ السَّيِّئِ إِلَى السَّيِّئِ»^(٢).

ولا بدّ للمسافر من رجوع إلى دياره الأولى، وللغائب من إياب إلى أحبابه السابقين، وكذلك من كان في سفر الدنيا الطويل فرحلته إلى نهاية، وعمره إلى نفاد، وحياته إلى انقضاء وانتهاء..

وإن امرءاً قد سار سبعين حجةً

إلى منهلٍ، من ورده لقريب^(٣)

وقد جرت عادة الناس أن المسافر يشتغل بما ذهب إليه في سفره إلا في خاتمة أيامه، ففي آخره لا همّ له إلا الاستعداد

(١) رواه الترمذي في سننه برقم (٣٥٥٠) وحسنه ابن حجر رحمهما الله في فتح الباري (٢٤٠/١١).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده برقم (١٥٤٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢/٤).

(٣) ينسب للحجاج بن يوسف التيمي ولأبي العاتية إسماعيل العيني، انظره في: المجالسة وجواهر الأدب لأبي بكر أحمد الدينوري (١٠٥/٤).

للعودة من حيث جاء، والانشغال بالرجوع لبلده الذي كان فيه وما يأتي به لمحبيه، وهو ما يجب فعله لمن بدأ رحلة السَّفر للآخرة مع أوَّل أنفاسه في الحياة، وخصوصًا إذا جاء وقت الحصاد، وأزف الرحيل، ودنا الفراق، واقترب الوعد الحقُّ، وشارفت رحلة الحياة على الختام..

**إِذَا الرِّجَالُ وَلَدَتْ أَوْلَادُهَا وَبَلَّيَتْ مِنْ كِبَرِ أَجْسَادُهَا
وَجَعَلَتْ أَسْقَامُهَا تَعْتَادُهَا تِلْكَ زُرُوعٌ قَدْ دَنَا حَصَادُهَا^(١)**

فما من عذر لمن يُفَرِّط في أوقاته الغالية ليقضيها في الاهتمامات الرخيصة، ويضيع دقائقه الثمينة في الأشياء التافهة كما كان يفعل في أيامه السَّابقة ولياليه السَّالفة، فالخيل الأصيلة تُخرج أفضل ما لديها وأقوى ما عندها إذا لاح لها خطُّ النِّهاية وبدت بين عينيها خواتيم السُّباق..

«اجتهد أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قبل موته اجتهداً شديداً، فقيل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أُرْسِلَتْ فقاربت رأسَ مُجْرَهاها أخرجت جميع

(١) البيتان لأيمن بن خريم الأسدي، انظر: العمر والشيب لابن أبي الدنيا

ما عندها. والذي بقي من أجلي أقل من ذلك، فلم يزل على ذلك حتى مات رضي الله تعالى عنه.^(١)

وما دمت حيًّا تُرزق، وبين ضلوعك قلب يخفق، وفي صدرك أنفاس تتردد، وبشرايينك مياه الحياة تجري؛ فأنت في نعمة عظيمة لا تُقدَّر بثمن، وغنيمة كريمة لا تُعادلها قيمة، ومناسبة عزيزة لا يوازيها عوض، وفرصة غالية لا يعرف قيمتها إلا أصحاب القبور ومن حيل بينهم وبين ما أنت فيه..

ولو قلبت البصر وأمعنت النظر لوجدت أن أحبابًا وأصحابًا كانوا يعيشون معك، ويملؤون عليك الحياة بهجة وحبورًا ونضرة وسرورًا، فأصابتهم مصيبة الموت في لحظة خاطفة، ودهتهم داهية المنايا في غمضة عين عجلى، فرحلوا في صمت، وغابوا بلا وداع، وغادروا بدون رجوع، وذهبوا وما آبوا، وكأنَّهم ما درجوا في فجاج الدنيا يومًا من الأيام، ولا عاشوا في أكنافها حينًا من الدهر، فهل تحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزًا؟!

(١) كتاب قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٨) وسير أعلام النبلاء للذهبي

وكان بالإمكان أن تكون منهم، لكنك - بفضل الله - لم تكن عددًا مرقومًا في أسماء الموتى الرّاحلين، وما زال الله بكرمه يمدُّ لك في عمرك، وينسئ في أجلك، ويطيل في أيامك، ويكرمك بفرص النّجاة، لتستأنف العمل من جديد، وتستكثر مما جئت من أجله، وتستثمر فيما بقي لك من أيام وأعوام..

خُذُوا مِنَ الْعَيْشِ فَأَلْأَعْمَارُ فَانِيَةٌ

وَالدَّهْرُ مُنْصَرِفٌ وَالْعَيْشُ مُنْقَرِضٌ ^(١)

وقد أَلِفَ الكثير من الناس نفور نفوسهم من ذكر النّهايات، واعتادوا انقباض صدورهم ممّن يُذكّرهم بالخواتيم، ودأبوا على وحشة قلوبهم من مجالسة من يُنذّرهم دنوّ الرّحيل، وهو عين ما أفعله في حروفي القادمة، لكنّ حرصي على نفسي وحَدْبِي على غيري الزمّني بأن أكون حادي العيس، وهادي الرّكب، ودليل القافلة، وأبسنّي ثياب الواعظ النّاصح، وقمّصني أسمال النّذير العريان، وأجبرني على البوح بما يجيش في الخاطر ويجول في الوجدان، وفي النّذارة ما يستدني البشارة، وفي التّحذير والتّهويل ما ينجي مرارًا من الشّرّ الوبيل، فلأنّ

(١) عبد الواحد بن نصر المخزومي المعروف بالبيغاء.

تجالس من يُخَوِّفُكَ حتى تُدْرِكَ مأمناً، خَيْرٌ لَكَ أن تُصَاحِبَ من
يؤمِّنُكَ حتى تُدْرِكَ المخاوفَ كُلَّهَا..

حبيبك من يغار إذا زللت

ويُغلظ في الكلام متى أسأت

يُسِرُّ إذا اتَّصفت بكلِّ فضلٍ

ويحزن إن نقصت أو انتقصت

ومن لا يكثر بك ولا يُبالي

أحدث عن الصواب أم اعتدلت^(١)

ولعلَّ ناقدًا راشدًا يلومني بميلي للانتصاف لهذه الشريحة
التي أنا أحد أفرادها، والكيل لهم بما يزيد في كفتهم ويُرَابي في
مصلحتهم ويغرف في إنائهم ويجمع في إهابهم، ولا أنكر
تهمته التي تسكنني من أدناي لأقصاي، وتلبسني من أسفلي
لأعلاي، وتغشاني من مفرق رأسي لأخمص قدمي، وعذري
أنَّها - في نظري - شريحة اعتادت - في الغالب - على التَّضحية
من أجل غيرها، وإهمال حقوقها لتحقيق تطلُّعات سواها،
والتَّفاني في خدمة الآخرين مع جناية إنكار الذات وبخس حقِّ

(١) تنسب لأبي عثمان بن لثون التيجي.

النفس للتماهي مع رغبات الغير، وأزعم أنَّ الواقع أكبر راصد لما أقول، والوقائع أكثر شاهد لما أدَّعي، ولا لوم على من عدَّل الميزان المائل، ونصب الرأية السَّاقطة، وأعاد الحقَّ لأصحابه، وسوَّى الأمر في نصابه، وهو ما أرجو إدراكه وآمل حصوله في حروفي القادمة..

﴿ **وزبدة الكلام؛** من كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة، فالعبرةُ بكمال النهايات، لا بنقص البدايات..



سرُّ الوجود

إذا أدرك الإنسان الغاية من وجوده في هذا الوجود، وعلم السِّرَّ الذي من أجله كان في هذا الكون، وفهم الهدف من قدومه لهذه الحياة، ووقف على الحكمة من خلقه في هذا العالم، وتيقَّن أنه في مهمة عمل في زمن محدود ووقت محدود، فإنه لابدَّ وأن يجدَّ ويجتهد، ويحرص على ما ينفعه، ويلزم ما تكون به نجاته، ويملأ كلَّ ساعة بطاعة، ويُحدث في كلِّ لحظة من حياته قربي تقربُه إلى الله زلفى، ويشغل بأسباب سعادته في العاجل والآجل، ويحاول أن يحصل موجبات فوزه في الدنيا والآخرة..

إن لله عبادًا فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نظروا فيها فلمَّا عِلِمُوا أَنَهَا لَيْسَتْ لِحَيِّ سَكْنَا
جعلوها لُجَّةً واتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُمْفَنَا^(١)

(١) للإمام محمد بن إدريس الشافعي.

فإذا ما جمحت نفسه عن العمل، وأحجمت عن البذل والفضل، وجنحت للخمول والكسل، ودبَّ فيها الفتور، وتسرَّب إليها التهاون، وقعد بها الخذلان، ذكَّرها بقرب الرحيل، ودنو الأجل، وفجیعة الانتقال، وسرعة المغادرة، وخوفها سوء المصير، وأنذرها قبح العاقبة، فعادت تعدو كخيـل أصيلة لاحت لها علامات النهاية، وقامت من كبوتها تبحث عن تعويض ما فاتها واستدراك ما ضاع منها..

العمر وعاء العمل، والوقت مضمار السباق، والحياة ميدان التنافس، فلا يذهب عمرك سدى، ولا تعيش بغير هدى، وخطُّ لحياتك الأخرى كما تفعل مع الأولى، وأعط كل واحدة منهما من الاهتمام والاعتماد على قدر ما ستحياه بها..

﴿.. حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّيْ يَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

قال مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أدركت طلبية العلم في بلدنا يطلبون العلم والدنيا ويخالطون الناس، حتى إذا بلغوا الأربعين تركوا الدنيا ومخالطة الناس، وتفرغوا ليوم القيامة^(١).

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (١/٥٩).

ونقلوا أنَّ أهل المدينة كانوا إذا بلغ أحدهم أربعين سنة تفرغ للعبادة^(١).

وقال إبراهيم النخعي: كانوا يطلبون الدنيا؛ فإذا بلغوا الأربعين؛ طلبوا الآخرة^(٢).

فكن من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا، فبناؤها محاويجُ وأيتام، وعاشقوها مهازيل مطاريد يتابعون السَّراب ويلاحقون الأوهام..

﴿ **ونهاية المطاف؛** عش للدنيا على قدر مرورك بها، وعش للآخرة على قدر خلودك فيها!



(١) رياض الصالحين لأبي زكريا محيي الدين النووي (ص: ٥٧).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٢٢٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار لأبي

القاسم جار الله الزمخشري (١/٢١١).



لا تمت قبل الموت

مسكين من يشعر أنَّ دوره في الحياة قد انتهى ببلوغه سنَّ التقاعد، أو وصوله للسَّتين من عمره، أو تحصيله على وسام «الجَدِّ» لأحفاده من أولاده، أو غير ذلك من الأسباب التي يرى أنها تحول بينه وبين المزيد من العطاء، وتمنعه من الاستمتاع بالحياة، وتشعره بأنه صار قليل النِّفع، عديم الفائدة، وأنَّه أصبح من سقط المتاع، وخرثي البيوت، ورديء الممتلكات، وعلى هامش الاهتمام. يشعر أنه يعيش في خريف العمر، وقد ذوى غصنه الرُّطيب، ويبس عوده الأخضر، وتساقطت أوراقه الزَّاهية، دوره على مسرح الحياة قد انتهى، ومسيرة عمره خُتِمت فصولها، وتفاصيل حكايته تلفظ أنفاسها الأخيرة..

بكيْتُ على الشباب بدمع عيني

فلم يُغن البُكاءُ ولا التَّحيُّبُ

فيا أسفًا أسِفْتُ على شبابٍ

نعاهُ الشَّيبُ والرَّأسُ الخَضيبُ

عريت من الشباب وكنت غضاً
 كما يعرى من الورق القضيْبُ
 فيا ليت الشباب يعود يوماً
 فأخبره بما فعل المشيب^(١)

وهذا شعورٌ قاتل لا يقلُّ في مرارته عن تجرُّعِ العلقم،
 وإحساسٌ بغيض حارق لا تقلُّ حرارته عن لفح النار الملتهبة،
 ووجعٌ مُضنٍ يَمور في جوف القلب ويثور في وسط الصدر
 كالبركان الهائج والعاصفة الهوجاء ليذهب بلذة العيش
 وطيب الحياة..

وَمَنْ لَا يَعْتَبِ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمَنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
 وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ^(٢)

وهي هزيمة داخلية، وحرب نفسية يحمل لواءها الشيطان
 الرجيم الذي يريد به السوء، ويتمنى له الحزن، ويسعى أن يغشاه
 الضيق وتسكنه الكآبة، فيخدعه بالتلبيس والتدليس، ويقنطه
 بالتئيس والتبئيس، ويحاربه بالتحريش والتحريض، ليدرك منه

(١) ديوان أبي العتاهية (ص: ١٩).

(٢) البيتان لقطري بن الفجاءه، انظره في شرح ديوان الحماسة للتبريزي

نهمته، ويُصيب فيه بُغيته ﴿.. لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

وأعتقد جازماً أنَّ هذه الخدعة الشيطانية لن تنطلي عليك، وأنَّك تشعر بأهمية وجودك، وتُدرك جمال حضورك، وتعلم علو مكانتك، وتحسُّ بسمو كرامتك، وأنَّك ساكنٌ في سويداء قلوب محبيك، وتاج فوق رؤوس قرابتك، ووسام على صدور عائلتك، وأنَّ غدك أفضل من يومك، ومستقبلك أجمل من ماضيك، وأنَّ الآتي خير من الذَّاهب، والقادم أروع من الرَّاحل، والمقبل أنفع من المدبر، وفي حسن تدبير الله وطيب تقديره وكمال تيسيره ما يجعل الفؤاد مرتاحاً، والصَّدر منشراحاً، والنَّفْس مطمئنة، والضَّمير راضياً، والرَّوح تومض بالأمل والقلب ينبض بالحياة..

يومك الأجل لم يبدأ بعد، ورزقك الأوفر لم يحن وقته حتى الآن، وقرارك الأصوب لم تتخذه إلى هذه اللحظة، وسعادتك الغامرة قادمة في الطريق إليك، وقدرك المنتظر في مرحلة المخاض، وحلمك السَّابق يولد من جديد، والأشياء الجميلة في حياتك ستطل برأسها كفلق الفجر السَّعيد في غدك القريب الآتي - بإذن الله وفضله - من وراء الظلام.

الحياة في ظلّ حسن الظنّ بالله تبعث في الرّوح الأمل، وترضي القلب العليل، وتشفي الجرح النَّازف، وتشرح الصدر المكظوم، وتريح الفؤاد المضطرب، وتجعل للحياة طعمًا آخر بمذاق الرّضا، ولذّة الفأل الحسن، ومُتعة اليُمن والبركة والخير الكثير..

لا تغيّب الشمس إلا لتبزغ من جديد، ولا تُدفن البذرة إلا لتنبث الشّجرة الباسقة، ولا تسقط أوراق الخريف إلا لتورق في فصل الربيع، ولا تجتمع الغيوم السّوداء إلا لتهمي بالمطر وتأتي بالغيث، وليس بعد أوجاع المخاض الشّديد إلا تباشير المولود السّعيد، فاستبشر بفضل الله تعالى، وتأمل كرمه، وانتظر فرجه، وجهّز حقلك للبذر، وأعدّ ميزاب بيتك للمطر، واشتر مخدع طفلك القادم، وخُطْ ثوب العيد الجديد، وأسرج قناديل الفرح، وأوقد شموع البهجة، فوجودك في هذا الوجود يكفي لتشرق شمس الأمل من جديد..

﴿ **نتاج المقال:** القناعة كنز الفقراء، والجشع فقر الأغنياء..



لترکبن طبقاً عن طبق

قضت حكمة الله تعالى أن يتطوّر الإنسان من طور إلى طور، وينتقل من طبق لطبق، ويتحوّل من حال إلى حال، ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩].

قال عكرمة: حالا بعد حال؛ فطيماً بعدما كان رضيعاً، وشيخاً بعدما كان شاباً.

وقال الحسن البصري: حالاً بعد حال؛ رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة^(١).

فكلّ مولود يأتي للدنيا طفلاً صغيراً، ثم رضيعاً ضعيفاً، ثم فتى يافعاً، ثم شاباً فتياً، ثم رجلاً قوياً، ثم شيخاً سويّاً، ثم كهلاً راشداً، ثم هرمّاً ضعيفاً.

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير (٥٨٩/٦).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُأْبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

والله على عبده في كل مرحلة من مراحل حياته نعم لا يحصيها إلا هو، ومن لا وجود بها سواه، وأفضال لا يقدر على خلقها غيره، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وجمال كل مرحلة؛ أن يعيشها الإنسان بكل تفاصيلها راضياً بها، مسروراً ببلوغها، مبتهجاً بحاله فيها، لا تنزع نفسه للتسخط منها، ولا تنجح روحه للتأفف من لوازمها، ولا يميل فؤاده للتبرم من تبعاتها، فعينه زائغة لما قبلها أو بعدها، وقلبه متلهف للخروج منها لغيرها، ونفسه تبكي فراق ما كانت فيه قبل بلوغها، فتغدو روحه في سخط دائم، وهمم جاثم، وحزن لازم، كالتار تأكل بعضها، أو الفأس يقطع الشجرة وهو من أغصانها..

وما طول الحسرة على ما فات من الأوقات إلا إمعاناً في تفويت جمال اللحظة الحاضرة، وشروع في وأد جمال الساعة القادمة، فعش هذه المرحلة بكل ما فيها، واستشعر أن أناساً يصنعون من الليمون الحامض شراباً حلواً، وينون من الحجارة القاسية بيوتاً جميلة، ويجعلون من الفيافي المقفرة جنات ألفافاً وحدائق غلباً، بنفوس عظيمة لا تعرف اليأس، وقلوب راضية لا ترضى البؤس، وهمم عالية لا تؤمن بالإحباط، وعزائم قوية لا تستسلم للتثييط والتفريط..

«دخل الوليد بن عبد الملك المسجد، فخرج كل من كان فيه، إلا شيخاً قد حناه الكبر؛ فأرادوا أن يخرجوه، فأشار إليهم الوليد أن دعوا الشيخ. ثم مضى حتى وقف عليه، فقال له: يا شيخ، تحب الموت؟ قال: لا يا أمير المؤمنين؛ ذهب الشباب وشُرّه، وأتى الكبر وخيره؛ فإذا قمت حمدت الله، وإذا قعدت ذكرته؛ فأنا أحب أن تدوم لي هاتان الخلتان»^(١).

فعش حياتك بكل تفاصيلها، واستمتع بكل أحداثها، وتلذذ بكل حالاتها في كل مراحلها وهيئاتها، ولا يُشغلك البكاء على

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (ص: ١٤٧).

ما فات عمّا هو آتٍ، فالعين إذا امتلأت بالدموع أضاعت معالم الطريق..

﴿ وعمدة الكلام: دوام الحال من المحال، فعش حياتك في كلِّ مرحلة بأطيب حال..





العمر الجديد

يومك هذا الذي تعيشه هو أول أيام حياتك الباقية، وساعتك التي تحياها هي مبتدأ عمرك القادم، ولحظتك الراهنة هي فرصتك العظيمة في بداية حياة جديدة ومستقبل سعيد، فلا تستغرق في تذكر ما فات من عمرك فقد طويت صحائفه، ولا تتعمق في انتظار ما هو قادم من مستقبلك فربما لن تكون موجوداً فيه، وإنما لك الساعة التي أنت فيها..

املاً لحظاتك بما يبهجك في دنياك وآخرتك، واعمرها بما يكون سبباً في رضاك ومسرتك، وكن كالنحلة الطيبة لا تقع إلا على طيب ولا تُنتج إلا طيباً، ولا تكن كالذباب لا يقع إلا على الخراب، ولا تُشغل نفسك إلا بما فيه مصلحتك، ولا تكن فارغاً، وتَقْضِ أوقاتك بطلاً، وترض أن تكون عاطلاً، وتعيش سهلاً، فحياة التُّعَسَاء لا يملؤها إلا الفراغ، وكلما زاد الفراغ في بالون الهواء اقتربت لحظة انفجاره وانشطاره..

«كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنني لأكره الرجل يعيش سَبَهْلًا، لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة^(١).

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: إنني لأمقت الرجل أراه فارغًا، ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة^(٢).

وكان مالك بن دينار كثيرًا ما يقول: من عرف الله فهو في شُغلٍ شاغلٍ، ويلٌ لمن ذهب عمره باطلاً^(٣).

لنَفْسِي أبكي لستُ أبكي لغيرها لنَفْسِي في نفسي عن النَّاسِ شَاغِلٌ^(٤)

وقد جرت سُنَّةُ الحياة أن من لم ينشغل بنفسه انشغل بغيره، والذي لا يجد في وقته ما يملأه يتحوَّل لجهاز مراقبة للنَّاس يتابعهم بلا فائدة، ويلاحقهم بلا ثمرة، ويتعقَّبهم بلا جدوى، وفي النفس شغلٌّ عن كلِّ شغلٍ..

(١) ذكره الجوهرى في الصحاح (٣٠٢/١).

(٢) رواه الإمام وكيع في الزهد (ص: ٣٦٩) وهناد في الزهد (٣٥٧/٢) والبيهقي في الزهد (ص: ٧٧٤).

(٣) كتاب العمر والشيب لابن أبي الدنيا (ص: ١٤) وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (١٨/٨).

(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ١٢١).

شَرَّ الْوَرَى بِمَسَاوِي النَّاسِ مُشْتَغِلٌ

مِثْلُ الذَّبَابِ يُزَاعِي مَوْضِعَ الْعِلَلِ^(١)

الفراغ كأس الكسل الممزوج بالقلق والأرق، ووعاء الخيبة المملوء بالضيق والضجر، وطريق الخُسران المحفوف بالأسقام والآلام، وكلما زاد الفراغ في حياتك ثقلت عليك الأيام، وضاعت عليك مسالك الدروب، ودنت منك مزلق الانحراف، وضاعت عليك فرص البناء، وتاهت خطاك في فجاج الأرض بلا هدى..

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من النَّاسِ؛ الصَّحَّةُ والفَرَاغُ»^(٢).

إنَّ أهل القبور يتمنَّون ما أنتَ فيه من فراغ، وذوي الهمم العالية يودُّون لو أنَّهم يشترون أوقاتك المهدرة بأغلى الأثمان، وأصحاب الأسيرة البيضاء يرجون ما أنتَ فيه من قُدرة، وأرباب الأعدار يتلهَّفون على ما أكرمك الله به من تمكُّن، ولكن ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

(١) فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري (١٣٨/٦) ونسبه للصفدي (١/٤٦١).

(٢) صحيح البخاري (٦٤٢١).

ومن دعتهم داهية الموت يتمنون الرجوع للحياة الدنيا
لاستدراك ما ضاع منهم، وتعويض ما فات عليهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ
أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا
كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وأهل التفریط في يوم القيامة يسألون الله أن يمنحهم فرصة
ثانية وكرة أخرى ليعملوا بالطاعات التي زهدوا فيها، ويجتنبوا
السّيئات التي تهاونوا بها ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو
رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا
مُقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢].

وأصحاب النار يطلبون من ربهم أن يخرجهم منها وأن
يعيدهم للدنيا ليستأنفوا العمل الذي به سعادة الدنيا والآخرة
﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [١٧] قَالَ أَنْخَسُوا فِيهَا وَلَا
تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].

وأهل الجنة - مع ما هم فيه من نعيم مقيم وخير عقيم -
يتمنون الرجوع للحياة الدنيا ليستزيدوا من الأعمال
الصالحة، ويستكثروا من أفعال الخير، فيضاعفوا حسناتهم

ويرفعوا درجاتهم، فإن كان هذا حال أهل الجنة - وهم فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر - فما بالك بحال أهل النار؟! ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وأنت - ما دمت حيًا - فأنت في أمنيتهم جميعًا، فميدان العمل الصالح بين يديك، ومضمار التسابق في الخيرات تحت قدميك، فلا تهدر عمرك الغالي في الأشياء الرخيصة، وتضيع وقتك الثمين في الأمور التافهة، وتملأ وعاء عمرك بالاهتمامات الفارغة، فيذهب عمرك سدى، وتمضي أيامك بلا فائدة، وتنقضي حياتك بلا ثمرة، فتندم، ولات ساعة مندم!

﴿.. حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبر، فقال: «من صاحب هذا القبر؟» فقالوا: فلان بن فلان، فقال: «ركعتان أحبَّ إليَّ هذا من بقيَّة دنياكم» وفي رواية، قال: «ركعتان

خفيفتان مما تحقرون وتنفلون يزيدهما هذا في عمله أحب إليه
من بقية دنياكم»^(١).

﴿ ومقتضب التحرير: مصيبة الحياة الدنيا أنك لا تعرف
قيمتها إلا إذا انتهت مدة بقائك فيها! ﴾



(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ١٠) والطبراني في المعجم الأوسط (٢٨٢/ ١) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٨٠).



التَّكْيِف مع الحياة الجديدة

منطق العقل يغلب عاطفة القلب أحياناً كثيرة، ولغة الواقع أفصح لساناً وأبلغ بياناً من أوهام التمني، وحقيقة الحال تفرض نفسها على أهل زمانها في مواقع متعدّدة، وليس كلُّ ما تتمناه تلقاه، ولا جميع ما تحبّه تجده، ولذا ارضَ بالحياة الجديدة، وتكَيّف مع الدُّنيا المتغيّرة، واستوعب الواقع المختلف، وتأقلم مع العالم الحالي، ودعك من الحنين للماضي، والأنين من تغير الزّمان، والبُكاء على اللبن المسكوب، والوقوف على الأطلال البائدة، والتّمني بعودة الشُّباب الآفل، والتّغني بحياة الطيّين، فلن تقف الشّمس في كبد السّماء، ولن تعود عقارب السّاعة للوراء، ولن ترجع الأيام للخلف، ولا بد من التّعايش مع الواقع المعاش، والتّفاعل مع الأحداث الحادثة، والتّناغم مع حركة الكون الدائمة، فلا شيء يبقى جامداً إلا عقل من يريد الجمود، ومن الخيبة أن تظلّ حزيناً باكيناً ماضيك حتى يضيع منك حاضرك، وتعكّر صفو ما أنت فيه بهمّ ما أنت مُقبل عليه،

أو الأسف على ما كنت فيه، فلا الزَّمان يعود، ولا الماضي يرجع، ولا الواقع يبقى على ما عهدته عليه، ولا الحياة تظل واقفة بلا حراك، ومن حاول أن يُوقف دورة عجلة الزمن دهسته تحت خطاها، وقذفته خلف ظهرها، فحاضركَ اليوم كان بالأمس القريب مستقبلك القادم، ولحظتك التي تحياها الآن ستغدو بعد لحظة أخرى من ماضيك القديم، والكون يتغيّر، والأحداث تتعاقب، والوقائع تتلاحق، والمستجدات تتابع، والله في خلقه شؤون، وهو كلّ يوم في شأن!

لابدّ أن تؤمن بأنك لن تستطيع الثبات في مكانك وكلّ شيء يتحرّك حولك، ولن تبقى جامداً في محلّك وعجلة الزمن تُطوى من تحت قدميك، فلا توجد منطقة وسطى ما بين التحرك للأمام أو التراجع للخلف، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المذثر: ٣٧].

فبادر قبل أن تُبادر، وسارع قبل أن تُسبق، وتحرك قبل أن تُلحق، فدوام الحال من المحال، والجمود طبع الجلمود، والحركة الدائمة سنّة الله في كونه، والتغيّر حتمٌ لازم، وتبادل الأدوار في مواقع الحياة لا يخفى على ذي عينين وشيء نلمسه ونسمعه ونراه، فكرسي منصبك سيجلس عليه غيرك، وصديق

عمرك ربما لن يبقى معك إلى آخره، وجارك الملازم لعلّه يستحدث بيتًا جديدًا، وطفلك بالأمس سيطير من عُشِّك كلما ارتاشت جوانحه واشتدَّت قوائمه، ومعالم مدينتك تلبس في كلِّ يوم ثوبًا جديدًا، ووسائل التواصل الحديثة تُزري بكلِّ وسائلك القديمة، وعاصفة التَّغيير تذرُّو كلِّ أوراقك العتيقة، والأعوام تُطوى كطيِّ السَّجلِّ للكتب، والأيام حُبلى بكلِّ جديد، فلا تثبت إلا على مبادئك الرّاسخة، ولا تقم إلا على أصول دينك القويم، ولا تتمسَّك إلا بقيمك النّبيلة، ولا تتشبَّث إلا بمواقفك الجميلة، وأما الدُّنيا فوطُنْ نفسك على التَّأقلم مع تغييرها، والتَّكيف من تبدّلها، والتَّعايش مع اختلافها، فلا تشرق شمس يومها إلا على جديدها، ولا تغرب إلا على فقيدها..

﴿ وثمرة الحديث: آمن ما تكون السَّفينه عندما تكون على الشَّاطئ، لكنها لم تُصنع لهذا! ﴾





اغسل قلبك

يتراكم الصدأ في داخل الأنابيب حتى يغلقها، ويجمع القيح في داخل البهيمة حتى يقتلها، وهكذا تفعل الأحقاد بصاحبها، فهل يُعقل أن تبقى الخصومات بينك وبين بعض من تعاملت معهم حتى هذا الوقت من عمرك، وهي تقف على سعادتك كالدَّمال المؤلمة، وتفري في راحتك كالجرب القبيح؟!

هل من المقبول أن تبقى أسيرًا لغضبك الجامح طوال هذه السنين المتعاقبة؟ وهل من المعقول أن تبقى تنكأ في جرحك النازف كلَّ هذه الفترة الطويلة؟ أما وجدت في مسيرة حياتك فرصة واحدة تغسل فيها قلبك الموجوع مما علق به من دفائن وضغائن؟!

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ النَّاسِ أفضل؟ قال: «كلُّ مخموم القلب، صدوق اللسان». قالوا:

صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غلٍّ، ولا حسد»^(١).

أما مرّت بك لحظة صدق حاسبت فيها نفسك بحق،
واتّهمتها بالحييف على غيرك وأنها ربّما تكون سبباً فيما وقع
بينك وبين من خاصمته وقاصمته؟!!

جبال الرّمال تغيّرت معالمها من جرّاء لفح الرّياح العاتية،
ومعالم الكون تأثّرت بمجريات الزّمان المتعاقبة، ودولّ سادت
ثم بادت، وأمّم تتابعت في العدم، وأنت ما زلت كما أنت
تحمل في قلبك المسكين حقدك القديم، كحامل سلا البهائم
فوق ظهره ليقذفها داخل قبره، فبئسما قدّم لنفسه!

وَلَيْسَ كَرِيمُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَ^(٢)

إذا أردت راحة البال وسعادة الحال والمآل فتخلّص حالاً
من كلّ عداواتك السّابقة، وتطهّر من كلّ أوساخ الماضي
القديمة، وتمرد على كلّ نزعة جامحة للاستعلاء على الغير،
وكلّ نزعة باطلة تدعوك للانتقام من الخصوم، واصفح عمّن

(١) صحيح ابن ماجه (٤٢١٦) صحيح سنن ابن ماجه: (٣٣٩٨).

(٢) شطر بيت للمقنع الكندي عجزه: ولا أحمل الحقد القديم عليهم ...

تعدّى عليك، وأحسن إلى من أساء إليك، واعف عمّن ظلمك،
وتجاوز عمّن قصّر في حقّك، فالعيش في هذا الوجود محدود
والبقاء فيه محدود، فلا نملؤه بما ينغصه، والحياة سريعة
الانقضاء فلا نكدّرها بما يعكّرها من الضيق والضجر، والعمر
أقصر من أن نقضيه في الصّراعات والنّزاعات، والمشكلات
والمهاترات، ففاتورة السّعادة أعلى في قيمتها من كلّ مغنم
المعمورة ولعاعها الفاني، ومهر الحياة المطمئنّة أعلى من كلّ
مكاسب الدنيا ومتاعها الزائل..

مِنَ الْيَوْمِ تَعَارَفْنَا وَنَطْوِي مَا جَرَى مِنَّا
وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قُلْتُمْ وَلَا قُلْنَا
وإن كَانَ وَلَا بُدُّ مِنَ الْعَتَبِ بِالْحُسْنَى
فقد قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا
كفى ما كَانَ مِنْ هَجْرٍ وَقَدْ ذُقْتُمْ وَقَدْ ذُقْنَا
وما أَحْسَنَ أَنْ نَرْجِعَ لِلْوَصْلِ كَمَا كُنَّا^(١)

إنّ النّار الموقدة في صدرك لن تحرق إلا سعادتك، وإن
المشكلات في حياتك كالشّوك المبعوث في طريقك لن تدوسه

(١) بهاء الدين زهير.

إلا قدمك، وإن الضيق الذي يسكن في سويداء قلبك لن يتوجع منه إلا جسدك، ولن تستوفي حقوقك من خصومك حتى تستوفي الأمراض نصيبها من راحتك وأنسك ونومك وصحتك وعافيتك..

لا شيء في الحياة يوازي ضجعتك على سرير المرض، ولا مكسب في الدنيا يساوي فقدك لبعض بدنك، ولا مغنم في الواقع يكافئ تجرُّعك مرارة الدواء ومراجعة الأطباء..

﴿ وصفوة الخطاب: غَسِّلْ قَلْبِكَ أُولَى مِنْ غَسْلِ قَدَمِكَ، ونظافة صدرك أهمُّ من نظارة ثوبك! ﴾



الصدق الوفي

صديقك الذي لا يخون، وحيبيك الذي لا يغدر، وخليك الذي لا يمكر، وصاحبك الذي لا يتخلّى عنك كلما احتجت إليه وطمعت فيه، هو؛ عملك الصالح: زادك في الرّخاء، وعُدَّتْكَ عند البلاء، وسبب سعادتك في دنياك، ومهاد نجاتك في آخرتك، وما استرضي ربُّك بمثل الإيمان الصادق والعمل الصالح..

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأخلاء ثلاثة، فأما خليلٌ فيقول: أنا معك حتى تأتي باب الملك، ثم أرجعُ وأترُكُك، فذلك أهلك وعشيرُك، يُشيعونك حتى تأتي قبرك، ثم يرجعون فيتزكونك، وأما خليلٌ فيقول: لك ما أعطيت، وما أمسكت فليس لك، فذلك مالك، وأما خليلٌ فيقول: أنا معك حيث دخلت، وحيث خرجت، فذلك عملك، فيقول: والله! لقد كنت من أهون الثلاثة عليّ»^(١).

(١) رواه الحاكم في المستدرک (١٤٥/١) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٥٤٨/١).

ولا يماري مجادل أو يصحّ في ذهن عاقل؛ أن يستوي المحسن والمسيء، والمقبل والمدبر، والمؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، ومن يأتي في المقدمة ومن يجيء في الآخر، ومن يعيش ولا همّ له إلا البحث عن مرضي مولاه مع من ليس ذلك له على بال، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَاهِلِينَ﴾ ٣٥ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].
﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

الدنيا مزرعة الآخرة، ومضمار السباق، وميدان التنافس، وقاعة الامتحان، ودار البلاء، ومكان الاختبار، وزمان التمهيص، ومحلّ المجاهدة، ومقرّ المكابدة، وسوق المرابحة، ووقت البناء، وموطن جمع الزاد ليوم المعاد، ومن أطاب البذر طاب له الثمر، ومن اجتهد في زمان الزرع سرّ قلبه إبان الحصاد، ومن تزوّد من ممرّه تمتّع في مقرّه، ومن جدّ في وقت العمل قطف أطيب الجنى إذا حان الرّحيل وأزف التّحويل، ومن صبر في حال البلاء رضي في وقت الجزاء.

تزود للذي لا بد منه فإن الموت ميقات العباد
وتب مما جنيت وأنت حيٌّ وكن متنبهاً قبل الرقاد
ستندم إن رحلت بغير زاد وتشقى إذ يناديك المناد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد؟^(١)

وكلُّ النَّاسِ يتاجرون في سوق الدنيا ويرابحون في بضاعتها
ويكاثرون في سلعتها، وإذا انتهى سوقها وهُدم رواقها ونُقِضت
أطنابها تبين عند الانصراف من هلك ومن نجا، ومن ربح ومن
خسر، ومن فاز ومن انهزم، ومن أخفق ومن تفوَّق؟!

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال:
قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتَقُهَا
أَوْ مُوْبِقُهَا»^(٢).

ومن دخل ميدان المعركة دون التزود بسلاحٍ يقاتل به
يوشك أن يكون أوَّلَ الضَّحايا، ومن دخل مفازة دون التزود
بالماء يوشك أن يموت عطشاً، فلا تترك نفسك دون زاد،
واحفر لك بئراً قبل أن يصيبك العطش، وابن لك بيتاً يحملك

(١) تنسب للإمام محمد بن إدريس الشافعي.

(٢) صحيح مسلم (٢٢٢).

من زمهرير الشتاء وهجير الصيف قبل أن ترحل إليه وتسكن فيه، فبين يديك عقبات كأداء، وأهوال عظام، ودواٍ مخيفة، وبلايا مفزعة، فخذ أهبتك للسفر الطويل بزاد يقيم الأود ويقوي العضد ويحفظ الروح والجسد، فرحلة الرحيل للآخرة قد بدأت خطواتها مع أول أنفاسك في الحياة، ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿وجوهر الكلام: خليلك الصادق لا تعرفه إلا في المضايق!﴾



الاستثمار الحقيقي

من المعلوم عند كلِّ العقلاء أنَّ الوجود في هذا الوجود مرَّة واحدة تنتهي في حياة كلِّ النَّاس بانتهاء آخر الأنفاس، وهذا عمر قصير ووقت يسير مع ما فيه من مشغلات وملهيات، وضرورات وحاجيات، وما يبقى للعبد منه خالصًا لا ينازعه فيه عرض ولا مرض قليل من قليل، ولذلك يعمد أولو النهى وأرباب الحجى أن يطيلوا أعمارهم بأعمالهم الصالحة التي يستمرُّ خيرها في حياتهم وبعد مماتهم من خلال الصَّدقات الجارية والأعمال الدائمة التي لا تزول بزوالهم ولا تنتهي بانتهاء حياتهم، وتلك عطية ربَّانية وهداية إلهية يختصُّ الله بها من يشاء من عباده، فيوفقه برحمته لمشاريع خيرية - حسب قدرته وطاقته - يُنشئها أو يُنسِّجها فيها قبل موته، فيضيف بها أعمارًا إلى عمره، وصحائف إلى صحيفته، وأجورًا كثيرة في ديوان أفعاله، وأثقالًا مضاعفة في ميزان أعماله، وتغدو كالنَّهر المُتدفِّق من الحسنات الجاريات والباقيات الصالحات ينال من

بركتها ما كان حيًّا، وتأتيه في قبره أحوج ما يكون إليها وأرغب ما يكون فيها، ويصيب بها رحمة الله ودرجاته العالية في جنَّاته يوم الخلود، لأنه كان ممن يمهد لنفسه الخير في قبره، ويتزوَّد ب زاد التقوى ليوم نشره وحشره، ويرسل الخير في طريقه ليلقاه أمامه في يوم القيامة، ويجعل لنفسه رصيْدًا من العمل الصالح وذخْرًا من كنز التقوى ينفعه في العاجل والآجل ...

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ لَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

فلأنفسهم يستعدون، ويسوِّون المضجع ليسلموا من عقاب ربهم، وينجوا من عذابه^(١).

امْهَدْ لِنَفْسِكَ حَانَ السَّقْمُ وَالتَّلَفُ

وَلَا تُضَيِّعَنَّ نَفْسًا مَا لَهَا خَلْفُ^(٢)

والبصير بعاقبة أمره يتأمل في واقع النَّاس وحاجاتهم، فينهض بهمَّته ليصطفي لنفسه من الأعمال الصالحة ما يناسب عمره، ووقته، وفكره، وقُدْرته، وقُدْرته، ورغبته، فيرمي في لَبَّتْها بكلُّ سهم من كنانته، ويغرف من معينها بدلوه ما يروي غُلَّتْه

(١) تفسير الطبري سورة الروم آية ٤٤.

(٢) البيت لسليمان بن يزيد العدوي، انظره في: جامع البيان للإمام الطبري

ويُشبع نهمته، ويُصيب منها ما يطمع في مضاعفة أجره واستمرار ثوابه ودوام جزائه..

وهذه فطنة الأخيار في اختيار العمل البار الذي يفضل غيره من الأعمال الصالحة التي تتفاضل فيما بينها زماناً، ومكاناً، وعدداً، ونوعاً، وهيئة، وأثراً، وأجرًا..

ومسكينٌ من تموت حسناته بموته، وينتهي ثوابه مع آخر أنفاسه، وتطوى صحائف عمله بحلول أجله، لأن مدة بقائه في الدنيا قصيرة مهما طالت، ضيقة مهما اتسعت، منقطعة مهما امتدت، وحياته إلى نهاية مهما توالى سنينه وتتابعت أعوامه، وقدرته محدودة بالممكن، واستطاعته محصورة بالطاقة، وجهده محكوم بالمتيسر..

الذكيُّ الألمعيُّ من يطيل عمره الاستثماري سنين عدداً، وينوع في مشاريعه الدائمة طرائق قديداً، ويضاعف أجره عليها أضعافاً كثيرة، ويديمها لنفع الناس ما دام في الأرض دياراً يمشي، ويشيع أثرها فوق كل أرض وتحت كل سماء ما استطاع لذلك سبيلاً، فتكثر شهوده، ويدوم خيره، ويمتد برّه، ويتضاعف أجره، ويستمر عطاؤه، وتعظم منفعته، وتكبر آثاره..

إنَّ الوقف الخيري نهر جارٍ من الحسنات، والفعل ذو الأجر المضاعف ثروة لا تُقَدَّر بثمن، والصَّدقة الجارية استثمار لا يعرف الخسارة، والعمل الصالح ذو النَّفع المتعدِّي تجارة رابحة لا تؤمن بالكساد، والمشروع الذي يستمر خيره طويلاً بضاعة غالية لا يُرخصها البوار، والمنفعة التي يدوم وجودها كثيراً ولدّاً بارّاً لا يعرف العقوق، والموفّق من يكون له في كلّ مجال جولة، ومع كلّ فرصة صولة، وبأيّ مشروع إسهام، وفي أيّ منفعة عامة نصيب معلوم وحظّ مقسوم، فلا يدري ما ينقطع منها وما يدوم، وما يزول وما يبقى، وما يفنى وما يخلد، وما يستمر وما ينفد..

﴿ **وَلِبَابُ الْحَوَارِ:** اترك ما يذكّر بك بعد رحيلك، حتى يقال عنك: مرّ من هاهنا، وهذا الأثر!



العوادات السيئة

خاسرٌ من يظنُّ أنه سيفوز في سباقه من رفاقه في مضمار الحياة وهو مُكبَّل القدمين مُوثق الرِّجلين مُغمض العينين، تعثرُ خطواته في أصفاده، وتكبو أقدامه في أغلاله، وهذا حال من لديه عادات ذميمة وصفات سيئة تحول بينه وبين مدارج النجاح، وتمنعه من الرُّقي في مقامات الكمال، وتحول بينه وبين أهدافه الكبرى وأحلامه العظمى، فالعوادات السيئة تمنع صاحبها من نهضة التَّغيير ومتعة التَّطوير، لأنها ستقول له: لا فائدة من المحاولة، ولا داعي للاجتهاد، ولا أمل في النهوض، ولا جدوى من التَّغيير، فيُسكتُ طبعُ العادة في داخله كلَّ صوت يدعو للنهوض من جديد، وكلَّ نداء يستحثُّه للتخلُّص من أعباء الماضي ورواسب الجاهلية ...

وهنا تكمن أهميَّة المحاسبة للنفس، والمجاهدة للهوى، والمقاومة للكسل، والمدافعة لتلبس إبليس، والممانعة من الرِّضا بالواقع، والمواجهة لقيود العادة، وما آفة المنهزم إلا

رضاه بها وتقبله لها، فمن عاش بين الفرث والدِّم لم ترزعجه رائحة التَّن، ومن ألف معانقة الوُسادة فاتته بهجة الحصول على الرِّيادة والوصول إلى السَّعادة، ولل فجر نورٌ وهَّاج لا يعرفه من اعتاد الرُّقاد، وللشَّغف ألقٌ فاخر لا يراه من نظره محبوسٌ تحت قدمه، وللنجاح طعم فخم لا يذوقه سقيم الفم عديم الفهم..

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُّرٍّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا^(١)

البيت الجديد لا يؤسَّس فوق عيوب القواعد القديمة، وتصحيح المستقبل لا يتناسب مع الاعتياد على أخطاء الماضي، ومشروع الحياة القادمة يحتاج إلى التخلِّي عن العادات السيئة والتَّحلي بالشَّجاعة للتَّخلُّص منها والنَّأي بالنَّفْس عنها..

ولا عيب إلا في الرُّضا بالعيب!

خطوة التصحيح تبدأ بأهميَّة الصُّدق مع النَّفس، والحرص على كشف الحساب مع السُّلوك والنَّظر بعين المحقِّق المدقِّق في حقيقة الطُّباع والأطماع لمعرفة وجوه النِّقص ومكامن الخلل ومواطن الرُّلل، والقيام بنهضة شاملة في كلِّ جوانب الحياة مع أهميَّة التَّضرُّع والدِّعاء والاستشارة للمحبين

(١) أبو الطيب المتنبي.

الصّادقين وأحياناً الإصغاء لنقد الحاسدين الحاقدين، مع تكرار المحاولات الجادة، وعدم اليأس من النّجاح، وسياسة النّفس الطّويل، والصّبر على مرارة المجاهدة، والمقاومة لمعاول هدم المثبّطين، والصّلابة في مواجهة هجوم المُشكّكين، ليستقيم من الخلق ما اعوجّ على مدار السّنين، ويصلح من الطّبع ما فسُدّ مع كرّ الجديدين ...

﴿ **ونُخبه العلم:** من الفأل السيء أن يظلّ الطّبع السيء مع صاحبه حتى يدخل به إلى قبره!





كن سعيدًا!

السَّعادة تنبع من الداخل، وتنبعث من جوف النَّفس، وتشعُّ من بين الضُّلوع، ثم تفيض على كلِّ جوانب الحياة ومناحي العمر، فلا تطلبها من غيرك، ولا تبحث عنها عند أحدٍ سواك، ولا تعلقْ أنسك بمخلوق أبدًا، ولا تعتمد على أيِّ كائن مهما كان في جلب السَّعادة لك، فالكلُّ مشغول بإسعاد نفسه وتحقيق ذاته، ولا لوم لهم ولا تثريب عليهم فهذا حقٌّ أصيل لكلِّ أحد..

ولكلِّ مرحلة من مراحل العمر ما يجلب السَّعادة إليها ويوجب الشُّرور لها، فموجبات سعادة الطُّفل تختلف عن موجبات سعادة الفتى اليافع، وهو الفرق ذاته بين مفرحات الشباب ومبهجات الشيوخ، وهكذا كلُّ مراحل العمر لها ما يناسبها من بواعث السرور والحبور، ويلائمها من أسباب الفرح والمرح، ويوافقها من وسائل الأنس والسُّلوى، ومن أراد

أن يجعلها سويًا فهو كمن يعطي شيخًا كبيرًا لعبة طفل صغير ليسلو بها، فهل تستوي بهجة الطفل ببهجة الكهل؟!

وتكمن مأساة بعض الكبار أن يلزم قلبه في مرحلة الكبر بما كان يتهج به في مرحلة الشباب أو الصغر، وإلا كان في نظر نفسه محرومًا مغبونًا بئسًا تعيشًا، وتمزقت نياط قلبه كل ممزق في البحث عن السعادة الموهومة والأنس الغائب كمطارد السراب الكاذب، ومتابع السحاب الخُلب..

فيعيش في غير زمانه، ويخالط من هم دون جيله، ويمارس ما لا يناسب عمره، ويأتي بما لا يليق بسنه، ويتذلل نفسه فيما يهينه ويشينه، ويتصابى في سخف بالغ، ويتشَبَّب في سفاهة مخجلة، فيفقد نعمة التّصالح مع النفس، ويُحرم قيمة التعايش مع الواقع، ويُسلب نعمة الاتّزان في التّصرّفات، مما يجعله تحت مقصلة النّاقدين، وفوق نُضَبِ الشّامتين، فيستخفُّ به قومه، ويسخر منه من يُعاشره، ويحتقره من يُعامله، ويستصغره من يُصاحبه، ويعرّض شخصه للغمز واللمز، والإهانة والتهكُّم، والاستهزاء والازدراء..

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقّها

هواناً بها كانت على الناس أهواناً

فَنَفْسُكَ أَكْرَمُهَا وَإِنْ ضَاقَ مَسْكُنُكَ عَلَيْكَ بِهَا فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ مَسْكَنًا^(١)

ومن وضع نفسه موضع التُّهم فلا يلومنَّ من أساء به الظَّن،
ومن دخل مداخل الرِّيب سرت فيه قاله السوء، ومن أرخص
قيمة ذاته في سوق الكرامة عدَّه النَّاس بلا مكانة، وعاملوه بدون
احترام، وعاشروه بغير تقدير، وجعلوه كعرض رخيص وشروه
بثمن بخس، ومن أزرى بنفسه فلا ينتظر تبجيلاً من غيره، ومن
أهان ذاته فلن يجد له من بين النَّاس من مُكرم، وعلى نفسها
جنت براقش، فيداه أوكتا وفوه نفخ!

وكان كَعَنَزِ الشُّوءِ قامت بِظِلْفِهَا إِلَى مُدْيَةٍ مَدْفُونَةٍ تَسْتَيْثِرُهَا^(٢) ضفادعُ في ظلماء ليلٍ تَجَاوَبَتْ فدلاً عليها صوئُها حَيَّةُ البحرِ^(٣)

الرُّضا بالقضاء، والقناعة بالمقدور، والقبول بالموجود،
واليقين بمعيَّة ربِّ العالمين في كلِّ مراحل العمر من أعظم

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٣١٠).

(٢) البيت للفرزدق، انظره في التمهيد لابن عبد البر (٤/٢٩٨).

(٣) ديوان الأخطل (ص: ٨٤).

أسباب السعادة والتلذذ بالحياة والأنس بالعيش، فلا تذهب نفسك حشرات في طلب ما عند سواك فلن يكون لك، ولا تربط رضاك بما عجزت عنه، ولا تقرن أنسك بالأمانى المستحيلة، ولا تقارن بين ما عندك مع ما عند غيرك، ولا تنتظر أن تأتيك المطلوبات والمرغوبات على طبق من ذهب بلا تعب أو نصب، ولا تحلم بتحقيق كل الأحلام والآمال فلست في الجنة، ولا تعيش في غير زمانك، ولا تنظر بعين الغبن لما في أيدي الخلق وإنما تأمل بعين الرضا لما في يديك، فليست السعادة في شيء تملكه وإنما في كل شيء تستمتع به وتستفيد منه، ولو كان قليلاً في حياتك..

﴿ **وحكمة النقاش:** قشور الفاكهة لا تُغني عن لبّها، وسعادتك من الدّاخل، فلا تبحث عنها في الخارج!





تخلص من أثقالك

مجهودٌ منكودٌ من يرتقي الشَّاهق الباسق ويصعد الجبل
الأسهم، ويزيد تعبهُ ويتضاعف جهده إذا كان ممَّن يحمل فوق
ظهره ما يُثقله، فكلما زادت الحمولة تضاعفت الوعورة
وتعاظمت الخطورة..

وهو حال من كبر في سنِّه وطال به عمره وهو يريد الرُّقي
في مدارج السَّالِكين لربِّ العالمين، لكنه مثقلٌ بحقوق الخلق،
مُحمَّلٌ بمظالم العباد، قد تلطَّخت يده بالخوض في أموالهم
والتعدي على ممتلكاتهم، ونأى كاهله بعبء الهتك لأعراضهم
والفتك بمحارمهم، وغير ذلك من صور الإيذاء والاعتداء..

وهو ما يوجب عليك فتح سجلِّ أيامك الماضية، وجرد
حساب دقيق وعميق مع نفسك بشدَّة وحِدَّة، ومحاسبتها حساب
الشُّريك الشَّحيح، ومراقبتها مراقبة النَّاقد البصير، والباحث عن
نجاة نفسه في يوم المصير..

وقد أفلح من وقف مع نفسه بصدق؛ ليلزمها بإبطال الباطل وإحقاق الحق، وحاسبها حساباً عسيراً، وخالفها خلافاً كثيراً، وأطرها على الحق أطراً، وقهرها لقبول العدل قهراً، وألزمها برّد الحقوق لأصحابها، وإعادة الحقائق في نصابها، والتخلص من تبعاتها قبل أن يقف مع أهلها على عرصات يوم القيامة ليكون القصاص الحق في يوم الفصل، والوفاء من حسناته الغالية في ساعة الجزاء..

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: إِنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكَيْنِ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصُوكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدَرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كِفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتَصَصَ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ». قَالَتْ: فَتَنْحَى الرَّجُلُ فَيَجْعَلُ يَبْكِي وَيَهْتَفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾.. [الأنبياء: ٤٧]. فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ

الله ما أجدُ لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرارٌ كلُّهم^(١).

والسَّعيد من تخفَّف من أحماله الثُّقال، وأقبل على مولاه بصحيفة نقيَّة من كلِّ خطيئة، ولقي ربَّه خفيف الظهر، نظيف اليد، ضامر البطن، بريء الذُّمة، نقيَّ الصحيفة، لا يطلبه غيره بشيء كان له...

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ»^(٢).

والبئس التعيس الذي يعيش مستغرقاً في الشُّعور بمرارة المظلومية، ودوامة المؤامرة، وكابوس الخيانة، وضغوط الظنِّ السيِّء، وإلحاح فكرة الانتصار على الخصوم والخلاص من المكاييد والقصاص من الأعداء، فنفسه كالزُّجاج المُهشَّم يتشظى مع كلِّ حركة، وخُلُقُه كشوك السَّعدان لا تسلم منها يد لاس، ولسانه كدخان الكير لا ينجو منه أنف عابر، وسوء ظنُّه

(١) رواه الترمذي (٣١٦٥) وهو في صحيح سنن الترمذي (٣١٦٥).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٣٤).

بغيره كجلود الدُّبَاغة يعلق ننتها في كلِّ كفٍّ، وصدره أضيق
 من سَمِّ الخياط، وروحه في دبور ونفور وكدور، فأهله منه في
 عناءٍ دائم، وقرابته في شقاء ملازم، وجيرانه في بلاء جائم،
 وأصحابه في حروب طاحنة ومعارك ضارية، قد درج لسانه
 على كثرة الشكاوى، وأدمنت يده كتابة الدعاوى، وألف
 العكوف في مجالس المطالبة بالحقوق، واعتاد طريق
 المحاكم، ودأب على مراجعة أقسام الشرط، ومَرَدَ على
 الشُّقاق والفراق والمخاصمة والمراغمة..

فكيف ينجو من يوقد النَّار حوله في كلِّ اتجاه، وأنَّى يسلم
 من يستنبت الخصوم له في كلِّ ميدان، ومتى يرتاح من أتعب
 بأذاه كلَّ قلب، وبماذا يسعد من أشقى بجراحه كلَّ فؤاد، وكيف
 ينامُ قريرَ العين من أبكت صنائعه كلَّ عين؟!

﴿ ومختصر الخبر: ثلّاعب الأفاعي لا يسلم يومًا من

لدغها!





جدّد حياتك

الماء الأسن لا يصلح إلا للطفليّات، والنّهر الرّاكّد لا تسكنه إلا التّماسيح، والصّحراء الهامدة لا يناسبها إلا وهج الهجير وصرير الزّمهرير، والحياة دون حراك دائم كالجثة الهامدة والمقبرة الساكنة والشجرة اليابسة والجذوة الخامدة، ولا يقصّر العمر مثل استعلاء الضجر، ولا ينكّد الحياة إلا وحشة الكآبة، ولا يقتل الأنس بالأشياء إلا تغوّل السّامة، ولا يضيق العيش إلا استبداد الملل، ومن أراد بنفسه الخير أتى لها في كل يوم بجديد مفيد، وألقى بحجر في الماء الرّاكّد، ودوّى بصوته في البلقع الخامد، وحدّث مَسَلَكَ حركاته وتصرفاته مع كل فجر وهّاج، وقاوم مرحلة التّصحّر في حياته والتّكلّس في معاملاته والتّجمّد في علاقاته، وتجدّد بتجدّد الليل والنهار، فإنما الحياة في الحركة الدائمة والتحديث المستمر..

قوة البركان في ثورته، وجمال البحر في صخبه، وهيبة الرّياح في لفحها، ومنفعة الشّمس في توهّجها، فلا تكن

كجلمود صخر هامد، أو قالب ثلج جامد، أو رماد وهج خامد،
فتموت قبل الموت..

لا تسمح للعنكبوت أن تنسج بيتها فوق ركام ذكرياتك،
ولا تأذن للطيور المهاجرة أن تبني بيوتها فوق جذع عمرك
اليابس، ولا تقتل المتعة في حياتك، وتجعل أيامك صورًا
متطابقة من بعضها، ولا تكرر انفعالاتك الماضية، وتُعذّ
تجاربك القديمة، وتردّد كلماتك المملّة، وتجتر قصصك
السابقة، وتستدعِ وقائعك العتيقة، وتستنسخ أحداثك السّالفة
وتُثّن أحاديثك الرّتيبة، ولا تجالس من تضيق الدنيا بحضوره،
ولا تخالط ثقل الدّم بطيء الفهم غثيث الفمّ كثير الغمّ،
ولا تجعل يومك الحاضر كأمسك الدّابر، فالسّامة تجعل العمر
مُملاً رتيباً، والعيش بغيظاً كثيباً، والحياة موحشة مظلمة كليل
شتاء طويل...

أحدث في يومك حدثاً جديداً مفيداً لتكون مبتهجاً سعيداً..

تابع بين الحجّ والعمرة، وزر مسجد رسول الله ﷺ أكثر من
مرّة، وأكثر من صيام النوافل، والزم وردك القرآني، وأدم ذكر
الله تعالى، ونوّع في المساجد التي تصلي فيها، وعدّد أصوات
القراء الذين تسمع القرآن منهم، وصل الرّحم، وزر الجار، وعد

المرضى، وشارك في المناسبات العامة، واقرأ كتباً جديدة، وذق مذاقات الأشياء القديمة، وخض مغامراتك المثيرة، وأعد محاولاتك السابقة، وأيقظ طفلك الراقص في داخلك، وانفخ الروح في جذوة علاقاتك الخاملة، واحمل عصي الترحال فوق عاتقك، وجدّد هندامك، وكوّن صداقات جديدة، واجمع أحبابك عندك، وزر من هجرته، وصل من قطعته، واكتشف ما كان مجهولاً في ماضيك، وابعث هواياتك القديمة من مرقدتها، ومارس الرياضة بحب ومتعة، واختلق مناسبات الفرح في حياتك، وأبهج من حولك، والعب مع الأطفال كأنك أحدهم، وزر الكبار كأنك في حاجتهم، واذهب لمعلميك وأصحابك الأوائل، وادرج في مهاجع الصُّبا، وقف على الأطلال، وجالس من تحب، وازرع حقلك المهجور، وغير ألوان بيتك، وأعد ترتيب منزلك، وصاحب من يبعث السعادة في قلبك والأنس في يومك..

ولن تعدم وسيلة التجديد والتطوير ما كنت مقتنعاً بضرورة التغيير، وإلا فستكفى على نفسك، وسينطفئ وهج حياتك، وستخمد نار إبداعك، وستذوي أغصان سعادتك، ولن يكون لك عمل تقوم به في حياتك إلا؛ انتظار وفاتك!

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا
وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا^(١)

﴿ وموجز النبأ: لا تمت قبل الموت! ﴾



(١) لأبي الطيب المتنبي، انظره في كتاب شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي (٥٦/١).

المشروع القادم

قُرّر الآن! هل تريد صعود درجات المجد والرُّقي في سلّم
الفضيلة، أم نزول دركات الخزي ومهاوي الرذيلة، أم البقاء
صفراً على الشُّمال، بلا أثر يذكر أو موقف يشكر، وجودك
كالعدم وحضورك كالغياب وذهابك كالإياب..

إِذَا كُنْتَ لَا تُرْجَى بِدَفْعِ مِلْمَةٍ

وَلَمْ يَكْ لِلْمَعْرُوفِ عِنْدَكَ مَوْضِعٌ

وَلَا أَنْتَ ذُو جَاهٍ يَعَاشُ بِجَاهِهِ

وَلَا أَنْتَ يَوْمَ الْبَعْثِ لِلنَّاسِ تَشْفَعُ

فَعَيْشُكَ فِي الدُّنْيَا وَمَوْتُكَ وَاحِدٌ

وَعُودُ خِلَالٍ مِنْ حَيَاتِكَ أَنْفَعُ^(١)

إذا تمايزت المآثر فأين تجدك؟! إذا ذكرت أوصاف
الكمال فأين تضع نفسك؟! إذا عُدَّت مناقب الرجال فبماذا
تُصنَّف اسمك؟!

من أنت غدا؟ ما قدْرُك عند الله تعالى؟ ما وصفك في أنظار
الخلق الذين يشهدون لك أو عليك بما يشاهدون منك أو فيك؟
لو تأملت جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - الذين
اختارهم الله بعلمه لمصاحبة رسوله ﷺ لوجدت أنك - تلقائياً
ودون عناء - تُصنَّف كلٌّ واحد فيهم بما يناسبه من أوصاف
الكمال والجلال والجَمال، فإذا جاء وصف الصديق جاء اسم
أبي بكر، والفاروق ظهر عمر، والحيُّ أتى عثمان، والشجاع
بدا علي، والرواية أقبل أبو هريرة، وغسيل الملائكة سطع
حنظلة، وأسد الله لمع حمزة، وحبر الأمة بان ابن عباس،
والأعلم بالحلال والحرام ورد معاذ ... وهلمَّ جرا!

وهكذا جملة أصحاب رسول الله ﷺ دخلوا على الله من
أبواب متفرقة، وكتبوا أسماءهم في كتب السَّير بمداد من نور،
ونقشوا محبتهم في أفئدة الذين آمنوا بما لا تمحوه الأيام
والأعوام، لأنه كان لكل واحد منهم مشروع حياة يعيش له،

وهدف سام يسعى لتحقيقه، وحلم كبير يبنيه ما كان في الدنيا شفق وفي عمره رفق..

ولم يستغرق البعض منهم وقتًا طويلاً ليحقق حلمه العظيم ويدرك غايته الغالية، فهذا سعد بن معاذ رضي الله عنه أسلم في الثلاثين من عمره، ومات في السادسة والثلاثين، ولم يعيش في ظل الإسلام إلا ستة أعوام، لكنه لمّا مات اهتز لموته عرش الرحمن، وشيَّعه سبعون ألف ملك، وفُتحت له أبواب السماء، ولمع اسمه في الخافقين، وخُلد ذكره في ذاكرة المجد..

وكذلك راوية الإسلام العظيم أبو هريرة رضي الله عنه، أسلم في العام السابع من الهجرة بغزوة خيبر التي لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى بعدها بخمس سنوات وكانت كفيلة وكافية لأبي هريرة أن يرقم اسمه في كتب الحديث من مبتدأها إلى منتهاها ويحفظ للمسلمين دينهم ووصايا نبيهم..

وهكذا صفحات التأريخ، ودواوين السُّنة، ومؤلّفات السير، ومصنّفات الطبقات، وكتب المعاجم، وموسوعات التراجم، حافلة بالأبرار الأخيار الذين كان لكل واحد فيهم مشروع حياة، وخطّة مستقبل، وهدف عظيم يقاتل دونه ويناضل من أجله..

وهنا يأتي السؤال المهم؛ ما مشروع حياتك؟ هل تحيا
لهدف نبيل؟ هل لديك غاية تسعى لتحقيقها؟ وهل عندك
ما يُذكّر بك إذا حان الرحيل؟ وهل تركت لك ما يبقيك خالداً
في قلوب محبيك؟

﴿وَجَعَلَ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]..

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها

فالذكرُ للإنسانِ عُمرٌ ثاني^(١)

من المعتاد أن يبدأ التخطيط المستقبلي للمشاريع الكبرى
في حياة كلِّ إنسان عند فوهة شبابه وريعان عمره وبداية صباه،
فهل يعقل أن يكون لآخر العمر مشروع يناسبه؟ وهل يُقبل أن
يبنى الإنسان نفسه من جديد؟!

الحقيقة الدقيقة تقول بأن مشروع آخر العمر أهم من أوله،
وأعظم نفعاً من أعجله، لأنه تخطيط للحياة التي لا تنتهي،
وتهيئة للمستقبل الأبديّ السَّرمديّ، وترتيب للقادم اللازم
لسعادة الأبد وهناءة الخلود..

(١) أحمد شوقي من قصيدة مطلعها: المشرقان عليك يتحجان.

ولذلك خطُّ لمستقبلك الحقيقي وكأنك مولود للتو، وابن اللحظة الراهنة، وحدث السَّاعة الفوري، وكأن الذي مرَّ من حياتك حلم نائم، وذكرى غائب، وصفحة طُويت، وغروب شمس ليوم أمس، وأعدَّ لنفسك مشروعًا مستقبليًا مع الله تعالى تقوم به فيما بقي لك من حياتك لتغنم خيره وتكسب فضله بعد وفاتك..

أنشئ مدرسة خيرية، ابن مسجدًا أو دار أيتام أو مؤسسة تعليمية، ألف كتابًا، انشر علمًا، احفر بئرًا، ورَّث مصحفًا، ازرع شجرًا، شارك في الأوقاف الخيريَّة والأعمال التطوعيَّة^(١)..

والأفكار أكثر من أن تُحصَر، فالمشاريع كثيرة، والخيارات متعدّدة، والفرص متوافرة، لكنها تحتاج إلى قلب حيٍّ، ونفس توافقة للمعالي، وهمّة تناطح عنان السماء، وعزيمة تُحلّق بصاحبها فوق ذرى السُّحاب، ويقين راسخ بأنَّ ما عند الله خير وأبقى، وأنَّ السَّاعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور!

وأرجوك! لا تقل: فات القطار، وضاق الوقت، وضاعت الفرصة، فتلك أعذار الكسالي، ومبرّرات الفاشلين، وحجج

(١) للمؤلف كتيب بعنوان: نهر الحسنات الجاري، وفيه أكثر من مائة فكرة للصدقات الجارية.

الخاملين، وودَّ الشيطان لو ظفر منك بهذه الحيل ليمنعك بها من الإبداع، ويحرمك من الإنجاز، ويفتُّ في عضدك حتى لا تكون شيئاً مذكوراً وشأناً مشكوراً..

أنت كبير ما كنت تُخطط لمشروع كبير، وعظيم ما كان لديك هدف عظيم، فضع نفسك اليوم حيث يسرُّك أن تراها غداً!

﴿ **خلاصة البحث:** من جاء إلى الدنيا ثم لم يزد فيها فهو زائد عليها.



أنت أولاً

أحرق الناس من يعمل لغيره وينسى نفسه، كالشَّمعة المحترقة والفتيلة المشتعلة لينير لغيره المكان المعتم، ويبقى هو يذوي في دياجير الظلام..

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ الذي يُعلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ، وَينسى نفسه، مثلُ الفتيلة، تضيءُ للناسِ، و تحرقُ نفسها»^(١).

دعك من المثاليات المزيَّفة، والشعارات الخادعة التي تجعلك صفراً أمام نفسك، أجيراً مردولاً عند غيرك، فنفسك أولى بك من سواك، وذاتك أحقُّ من يجب أن تسعى لإسعادها في الدنيا والآخرة، وأنت أجدر الخلق بمالك وعنايتك وحرصك، فلا تحطب في حبل غيرك، ولا تبذر في حقل سواك، ولا تكن جسراً يطؤه الناس بأقدامهم، وسلماً يرتقون به

(١) رواه الطبراني وغيره انظر: صحيح الجامع للألباني (٥٨٣٧).

للوصول إلى أحلامهم، ولا تعش لغيرك وتنسى نفسك فتكن كحارس الكنز الجائع، وناسج الحرير العاري..

كَتَارَكَةٍ بَيَّضَهَا بِالْعَرَاءِ وَمُلْجَفَةٍ بَيَّضَ أُخْرَى جَنَاحَا^(١)

اعتن بنفسك أولاً، فلن تكون أنانيًا إذا اهتممت بها وجعلتها محور عنايتك ثم أفضت بخيرك لغيرك..

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أمر النبي ﷺ بالصدقة، فقال رجل: يا رسول الله، عندي دينار، فقال: «تصدق به على نفسك»، قال: عندي آخر، قال: «تصدق به على ولدك»، قال: عندي آخر، قال: «تصدق به على زوجتك أو قال: زوجك»، قال: عندي آخر، قال: «تصدق به على خادمك»، قال: عندي آخر، قال: «أنت أبصر»^(٢).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أعطى الله أحدكم خيرًا، فليبدأ بنفسه وأهل بيته»^(٣).

(١) البيت لابن هرمة، انظره في العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (٥٦/٣).

(٢) رواه أبو داود، انظر: صحيح سنن أبي داود (١٦٩١).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٨٢٢) وذكره الألباني بهذا اللفظ في

صحيح الجامع (٣٥٨).

فمن المهم ألا تتضخم فيك الأنا، ويطغى عليك حب الذات إلى درجة التقصير فيما أوجب الله عليك من النِّفقات الواجبة أو البخل بالفضل على غيرك بما فَضَّلَ عن القدر الواجب، ولكن لا تكن أشقى الخلق بما في يده وأظلم الناس لنفسه..

ولن يأسف المفرط يوم القيامة لأنه لم يؤخّر الخير لغيره بعد رحيله، بل سيكرع العلقم ويعض أصابع الندم لأنه لم يبذل الخير لنفسه أولاً ولحياته الدائمة ابتداءً، وسيقول في حسرة مرّة ﴿.. يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

لأن حقيقة الحياة الأبدية السَّرمدية التي لا تنتهي أو تنقضي ستظهر له متأخراً بعد أن تفوته فرصة الرجوع إلى الحياة الفانية ليستدرك ما فاتته ويعوّض ما ضاع عليه ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

لن يدوم لك ما في يدك، فلم يدم يوماً لأحد قبلك ولن يبقى لأحد بعدك، فكلُّ ما في يدك عاريةٌ مستردةٌ ومتاع مرجوع، فمنصبك سيتقل لغيرك، ووظيفتك ستكون لسواك، وثيابك ستذهب لفقير يلبسها، ومركوباتك سيملكها ويقودها سائق آخر، وبيتك سيسكنه - ربما - من لا تعرفه، وعلاقتك بمالك

ستنتهي حالما تلفظ آخر أنفاسك، لأن كل ما كنت تملكه أصبح
تركة لورثتك، وكل شيء كان لك انتقلت ملكيته لغيرك، فلهم
غنمه وعليك غرمه، ولهم لذته ومتعته وعليك حسابه إن كان
حلالاً أو عقابه إن كان حراماً...

ستخسر في لحظة واحدة كل شيء كان في يدك، وكأنك
ما ملكت شيئاً حتى اسمك الملازم لك المرتبط بك طيلة
حياتك، سيغدو اسمك بالمتوفى، وسيقال: أين المرحوم؟،
قربوا الجثة، صلوا على الجنازة، هنا دفن الميت!

وستخرج منها كما دخلت إليها..

هذا هو القدر المحتوم والقضاء المبرم، وهكذا هي رحلة
المصير، فلكل بداية نهاية، ولكل مقدمة خاتمة، ولكل أول
آخر، وكل حي سيموت ليواجه مصيره مع الحي الذي
لا يموت..

كلنا إلى الله صائر، فكم سارت تلك النعوش بمثلي ومثلك
من قبل!، فميت الغد يدفن ميت اليوم، ومن بكى على غيره
بكاه غيره، وإنما الجميع يتقاطرون نحو مضاجعهم، ويتتابعون
إلى حتفهم، ويتعاقبون جهة قبورهم، فمتقدم ومتأخر..

كُلُّ نَاعٍ فَسِيْنَعِي كُلُّ بَاكِ فَسِيْبَكِي
 كُلُّ مَذْخُورٍ سِيْفَنِي كُلُّ مَذْكَورٍ سِيْنَسِي
 لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ يَبْقَى مِّنْ عَلاَ فَاللَّهُ أَعْلَى^(١)

افتح قائمة الأرقام في جوالك، فستلقى فيها أسماءً لأناس رحلوا عن الدنيا وغابوا عن الوجود، ولم يبق منهم إلا حروف أسمائهم في هاتفك جسداً بلا روح وخبراً بلا أثر..

وافتح ملف صورك كذلك ستجد أن الكثير منها يشاركك فيها من عشت معه طرفاً من الدَّهر وأنست به يوماً من الأيام ثم جرت عليه تصاريِف المقادير فحملته فوق عنقك لتحشو عليه التُّراب بين المقابر، وتتركه لوحده بين أطباق الثرى، فغاب شخصه عن الواقع وبقيت صورته في المواقع..
 ونحن على الأثر..

فلا تغتَرَّ بدار الغرور، ولا تركن إلى الحطام الفاني،
 ولا تتعلَّق بالزُّخرف الزَّائل، ولا تُفْنِ عمرك في مطاردة السَّراب
 الزَّائف، ولا تنشغل إلا بما يسرُّك أن تراه في صحائف أعمالك
 يوم القيامة، لأن واقع الحال يوحي بأنه كلما زاد العمر زاد

(١) الأبيات لأبي علي الحسن بن هانئ الحكمي المعروف بأبي نواس.

الطَّمْع، وكلما طال الأجل طال الأمل، وكلما مرَّت الأيام والأعوام تشبَّث الإنسان بالدنيا وزينتها وأغرق نفسه في لجج متعتها وغاص في ثبج لذتها..

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرمُ ابنُ آدمَ، وتَشِبُّ منه اثنتانِ؛ الحرصُ على المال، والحرصُ على العُمُر».

وفي رواية عنه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَكْبُرُ ابنُ آدمَ ويَكْبُرُ معه اثنتانِ؛ حُبُّ المالِ، وطُولُ العُمُر»^(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرمُ ابنُ آدمَ وتبقى منه اثنتانِ؛ الحرصُ، والأمل»^(٢).

ولا بأس بالجهد المعقول من الاهتمام والقدر المقبول من الحرص، فالله تبارك وتعالى يقول ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

ولا لوم في تحصيل المباح وتوفير الحلال، وإنما اللوم لمن اشتغل به عن الواجب، وأوقعه في الحرام، وكان شغله

(١) صحيح البخاري (٦٤٢١) وصحيح مسلم (١٠٤٧).

(٢) رواه أحمد، وهو في صحيح ابن ماجه (٤٢٣٤).

الشاغل وعمله المتواصل، وأضنى فيه نفسه، وأفنى من أجله عمره، وضع به حياته حتى دهته داهية الدواهي وأصابته مصيبة المصائب، وعاجله الموت بغتة وهو سادر في غفلته..

﴿وصميم القول: أنت تخوض في بحر لجيٍّ، فلا تكن روحك آخر من تسعى في إنقاذها من الغرق!﴾





أطاييب الثمر

إنما المرء بأصحابه، يطيب بهم إذا طابوا، ويزين بهم إذا زانوا، ويشين بهم إذا شانوا، ويخبث معهم إذا خبثوا، ويسعد بهم إذا اجتمعوا، وينشرح صدره بهم إذا تلاقوا، ولذلك ابدأ حالاً بحملة المفاضلة بين أصحابك لتعرف من يستحق صحبتك فتلزمه، ومن يجدر بك الفرار منه والنأي بالنفس عنه، فتخلص من مصاحبة الثقلاء، ومجالسة المتشائمين والبؤساء ذوي النظرة السوداء، والسهر مع أهل النفسانيات الحادة والمعاملة الجافة والطباع الغليظة، واحذر من السفر مع من يقدس نفسه ويحب ذاته ويعشق شخصه، وفرّ من ضعيف الديانة قليل الصيانة رقيق اليقين فرارك من الأسد في العرين، وتجنّب صداقة اللوام النمّام، الظلوم الغشوم، اللعوب الكذوب، حارث الفتن ومسرع الحروب، وتخلص في مجلسك من مرافقة متقلب المزاج، متعكر الخاطر متكدر الصدر، عاشق

الحزن لصيق الضيق، جالب الغمّ والهمّ، كثير الشكوى
 مستدعي البلوى، وتفاد منادمة جافي الطبع ضيق العطن، دائم
 التأفف والتبرّم، والتألم والتندّم، واهرب من معاشرة البخيل
 الشحيح، الجموع المنوع، الضنين بفلسه الفتاك بضرسه، وانج
 بذاتك من صداقة المخادع المتلون، لابس الأفئدة متعدّد
 الوجوه، المتقلب الجرباء الحيّة الرقطاء، واترك محادثة الحقود
 الحسود، المخاصم المراغم، العنيد الشديد، الفظ الغليظ
 البغيض، وابتعد عن مخالطة الكسول الخامل، البليد الفاشل،
 التنبّل النّوام، قبيح الرائحة وسخ الهندام، وأتق مناقشة الفاجر
 في خصومته الفجّ في مخاطبته اللحوح في مطالبته، وأنا
 بنفسك عن مخالطة الخليع الفاسد، العابث الفاسق، العاهر
 الفاجر، الماجن الفاتن، العاكف على نزواته الغارق في
 شهواته، واحذر مجالسة الضّالّ المبتدع، المجادل المنحرف،
 وتورّع عن رفقة قليل الحياء كثير البذاء، سليط اللسان خبيث
 البيان، الناقد الذمّام، العيّاب السّبّاب، الجهول بنقص نفسه،
 الجسور بقدره غيره وجرحه..

واحذر مصاحبة السففيه فشر ما

جلب الندامة صعبة الأشرار

والنَّاسُ كالأشجار هذي يُجتنى

منها الثمارُ وذِي وقودُ النار^(١)

وما سوى هؤلاء فهينٌ لئن، مقبول معقول، وخصوصًا إذا
 جمع الله له بين الأدب والنَّسب، وسلامة الدين وقوَّة اليقين،
 وكثرة التعفُّف وقلة التكلُّف، وسلامة الصدر وسهولة
 التعامل، وطيب القلب ولين الجانب، وكان ذا لطف وعطف،
 ورحمة وحكمة، ونجدة ومؤازرة، وصاحب طرافة حاضرة
 وظرافة آسرة، ونداوة كفٍّ وسخاوة نفس، ومن أولي النهى
 والرأي، والنصيحة والمشورة، والسَّداد والرَّشاد، والصفات
 الحميدة والخلال الطيبة، ولن تعدم وجودهم في حياتك، فما
 يزال الشَّيخ في الوادي والرَّمث في البطاح، وما يزال في
 قومي رماح..

وإذا صاحبت فاصحب ماجدًا

ذا حياءٍ وعفافٍ وكرمٍ

قولهُ للشَّيء: لا، إن قلت: لا

وإذا قلت: نعم، قال: نعم

(١) أسامة بن منقذ.

ولا تجهد نفسك في البحث عن المعصوم من الخطأ،
النَّقِي من الذنوبِ الخَلِي من العيوب، السَّالِم من النَّقْص، فما
مِنْ أُمٍّ تزعم أنها أنجبت معصوماً من الخطأ والخطايا بعد سيدنا
محمد ﷺ بما فيهنَّ أُمُّك التي ولدتك!

﴿ ومختصر الحديث: صاحب من تتعلَّم الصَّبْر منه لا من
تتعلَّم الصَّبْر عليه.





منعة التغافل

درّب ذاتك على تجاوز الألم، وعود نفسك على قيمة التغافل، ومرّن عقلك على فكرة التجاهل، وطبّع تعاملك على مبدأ المدارة والمجاملة، ولا تجعل صدرك ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء، وكسّم الخياط يضيق بالفتيلة، وكيبت النملة تُغرقه القطرة، وكالأسفنجة تمتصّ في جوفها الأكدار، وإياك وبنّيات الطريق، والتعريش على جواد السُّبُل، وإنما اقصد البحر وخلّ القنوات، واهتمّ بالعظام ودعك من المحقّرات، ولا تستغرق في التفاصيل، وتعمق في الجزئيات، ولا تستيّزك المواقف الهزيلة، وتقف عند الأشياء الصغيرة، وتهتمّ بالأمور التافهة، وتزعجك الأحداث العابرة، فإنك لن تعطيها قدرًا من الاهتمام والاعتماد إلا أعطتك مثله من المشقة والتعب والضيق والاكْتئاب.. وحاول في كل يوم أن تغسل روحك مما علّقَ بها من مؤذيات، ولا تجعل المزعجات في حياتك نذبات دائمة في داخل روحك لا تزول، وحفرًا عميقة في جدار قلبك لا تمحى، وتعلّم كيف تنسى..

عن الحسين بن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»^(١).

وطن نفسك على تقبل ما لم تكن تحتمله في الماضي، وتعايش مع الناس على حالهم، وتفهم أفكارهم، وعاشرهم بما يناسبهم، فلن يرضيك منهم كل شأنهم، ولن يعجبك ما هم عليه في كل أشيائهم، ولن يكونوا صورة طبق الأصل منك، ولا نسخاً مكررة من اختياراتك ورغباتك، وكن ذا بال وسيع وصدر منشرح، وتغافل كأنك أعمى، وتشاغل كأنك أصم، وتجاهل كأنك أبكم، وتغاض كأنك لا تعلم، وتغاب كأنك لا تفهم، وإذا جاءتك العوراء من أحدهم فاخفض لها رأسك تَخَطُّك، واحمل تصرفاتهم على خير المحامل، ودارِ وجامل، وسامح وصالح، واغفر واستر، وغض الطرف، واقبل المعاذير، وادفع بالتي هي أحسن للتي هي أقوم، وتسام بنفسك عن الدنيا، وحلّق بعيداً في سماء العظام، وخذ ماتيسر منهم ودع ما تعسر عليهم، وارض بالقليل منهم تغنم،

(١) رواه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک والبيهقي في السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٩٠).

ودارهم ما كنت في دارهم، وأرضهم ما دمت في أرضهم، ولا يراك الله إلا محسنًا معهم، ولا تقطع شجرة معاوية بينك وبينهم، وحنانيك بهم فبعض الشر أهون من بعض، وحالٌ مائل خيرٌ من حالٍ معوجٍ، وماءٌ هماج أصلح من ماءٍ أجاج..

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإذا فاضت نفسك بالحزن من أطرافها، وامتلأت بالألم من جميع أعطافها، فاعلم أنها في حاجة لتغيير عاجل وحلٍّ سريع؛ بفسحة في حلال، وفرجة في مباح، تغسلها من أوجاعها وتداويها من أسقامها، وتكون لها كالبلسم النافع والدواء الناجع، فإنه إذا استجمع غليان البركان تفجَّر بالحمم، وعندما يتمُّ سواد الليل يتنفس بالفجر، وحين تتلبَّد الغيوم كالجبال تنفرج بالمطر، وهكذا نفسك التي بين جنبيك إذا أصابها الوجد في مقتل، وضائق عليها الأرض بما رحبت، فإنها تأمل في فرج قريب من واقع كئيب، وتبحث عن تنفيس أنيس من حال بئيس، وكلُّ إنسان على نفسه بصيرٌ وبمراضها خبيرٌ، فقد يكون الفرج في زيارة صديق أو خلوة بنفس، أو سفر قريب، أو تبثُّ ليل، أو

قراءة خاشعة، أو دعاء خاضع، أو صدقة خفية، أو صنعة معروف، أو لهو مباح، أو طعام شهوي، أو رياضة مائعة، أو غير ذلك من الأشياء المريحة للنفس الموجهة، والأمور النافعة للقلب الجريح..

﴿ **وجوهر المسألة:** لا تكن لينا فتعصر، أو قاسيا فتكسر، وخذ ما تيسر، ودع ما تعسر، فطلب الكمال من المحال..



سوء المنقلب

ليس من العقل أن تبني بيتاً ثم تهدمه، وتحفر بئراً ثم تردمه، وتزرع حرثاً ثم تحرقه، وتنسج غزلاً ثم تنقضه، ما هذا بفعل العقلاء ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا..﴾ [النحل: ٩٢].

ومن الجليل الجميل أن تستقيم على شرع الله في صغرك، وتلتزم بالأحكام الشرعية في شبابك، وتُري الله منك خيراً كثيراً حال قوتك، وتستمسك بالذي أوحى على نبيك ﷺ في زمن القوة والفتوة وجموح النفس عن واجباتها وجنوحها لشهواتها، فعن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبُوءٌ»^(١).

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٣٧١) وأبو يعلى (١٧٤٩) والحاثر بن أسامة في المسند (١٠٩٩) وحسنه شعيب الأرنؤوط في تخريج مسند أحمد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» - وفيه: - «وَشَابَّ نَشَأً فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ»^(١).

وأجمل منه أن تلازم هذا الالتزام، وتستقيم على تلك الاستقامة، وتدوم على ذلك الخير، وتثبت على الأعمال الصالحة كلما مرّت بك السنين، وتستزيد منها كلما كرّرت عليك الأيام والأعوام..

عن نفع بن الحارث رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، قيل: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قال: ^(٢)v.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بخيركم؟». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «خَيْرُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْمَاراً، وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالاً»^(٣).

(١) رواه البخاري (٦٢٩) ومسلم (١٠٣٧).

(٢) رواه الترمذي في سننه (٢٣٣٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد (٩٢٣٥) وابن حبان (٤٨٤) والبزار (٨٥٥٩) والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٣٦١).

ومن المؤسف المتلف أن يتآكل تدينك من أطرافه كلما مرّت عليك الليالي، ويضعف تعظيمك للنصّ الشرعي كلّما زاد علمك، وينقص إقبالك على الخير كلما طال عمرك، وتزيد غفلتك كلما دنا أوان رحيلك وزمان مغادرتك، معتمداً على رصيدك السابق، مستنداً على أدلة الرّجاء، متغافلاً عن نصوص الوعيد، مختلقاً للكثير من المبررات، متجاهلاً العديد من النّذر متغافلاً عن العجيب الغريب من العبر، وكأنما أمنت العقوبة، وضمنت النتيجة، وحصلت البراءة، وأدركت الضمان الإلهي بالنجاة من العذاب الأليم..

فما الذي غرّك برّبك الكريم؟!

﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ
فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

عصيت هوى نفسي صغيراً فعندما

دهتني الليالي بالمشيب وبالكبر

أطعت الهوى عكس القضية ليتني

خلقت كبيراً ثم عدت إلى الصغر^(١)

(١) الأبيات لعبد الملك بن عياش الأزدي، انظر: التكملة لكتاب الصلة =

قال الله تعالى: ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلِ
وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ
الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم
ترون هذه الآية نزلت: ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ﴾؟،
قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال قولوا: نعلم أو لا نعلم،
فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال
عمر: يا بن أخي، قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت
مثلاً لعمل، قال عمر: أيُّ عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال
عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله ﷻ، ثم بعث الله له الشيطان،
فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله ^(١).

= لمحمد القضاءعي (٨٣/٣) ونفح الطيب لأحمد المقري التلمساني
(٣٢٧/٤). وقد أجابه ابنه علي بقوله:

أبي قال قولاً شاع في البدو والحضر
وحت على الاحسان كلاً وما اقتصر
هنيئاً له إذ لم يكن كابنه الذي
أطاع الهوى في الحاليتين وما اعتذر

(١) صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري (٤٥٣٨).

إِنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يَقْلِبُهَا
كَيْفَمَا يَشَاءُ لَا يَرْكُنُ لِلْأَمَانِيِّ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَى الْأَمَالِ، وَلَا يُسَلِّمُ
نَفْسَهُ لِمَضَلَّاتِ الْفِتَنِ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ، وَلَا يَقْنَعُ
بِعَمَلِهِ السَّابِقِ، بَلْ يَلْسَعُ نَفْسَهُ بِسَيَاظِ الْعَبْرِ، وَيُصْغِي لِوَاعِظِ
الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَيُذَكِّي جَذْوَةَ الْخَوْفِ فِي نَفْسِهِ، وَيتَدَبَّرُ فِي
مِصَارِعِ الْهَالِكِينَ، وَيَبْتَئِ وَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا مَرَاضِي خَالِقِهِ،
فَلَا يَدْرِي مِنْ أَيِّ بَابٍ يَدْخُلُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا أَيِّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُهُ
لِرِضَاهُ، وَلَا يَعْلَمُ عَنْ أَعْمَالِهِ السَّابِقَةِ؛ هَلْ قُبِلَتْ فَيُزِيدُ أَمْ رُدَّتْ
فِي وَجْهِهِ فَيَسْتَأْنِفُ مِنْ جَدِيدٍ؟!

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ
الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ الْخَلِيقَ،
فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»^(١).

وليكن له أبلغ العظة في أصحاب النبي محمد ﷺ الذين
جاءت لهم بشرى الحق ووعد الصدق ممن لا ينطق عن
الهُوَى ﷺ بأنهم من أهل الجنة، وأتاهم الخبر الأكيد لأعيانهم
بأنهم ضمنوا دخولها وأنهم من سَكَّانِهَا، فما زادهم ذلك إلا

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨٤) والحاكم في المستدرک (٤٥/١) وصححه
الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٨٥).

إيماناً وتسليماً، وجُهداً وجهاداً، وبذلاً وفضلاً، وخوفاً وحياءً،
وتضحية وفداءً، ولم يركنوا للبشرى من أصدق الخلق بياناً
وأقومهم لساناً ﷺ، بل كانت البشرى لهم كعودٍ زاده الإحراق
طيباً، وذهب إبريز زاده التُّور بريقاً، وكانت لهم زاداً في الطريق
وحافزاً لبذل المزيد من العمل، وضاعفت من تمسُّكهم بدينهم
وتضحيتهم من أجله، وأربت في حرصهم على اغتنام ما بقي
لهم من الحياة في مرضي الله، فجمعوا بين الوجل والأمل،
وغنموا خير العمل ..

فلا تهدم ما بنيت، ولا تنقض ما غزلت، ولا تحلِّ ما فتلت،
ولا تضيِّع ما جمعت، فما أقبح الحور بعد الكور، والانتكاسة
خلف الاستقامة، والإدبار عقب الإقبال، والضلال في إثر
الهداية، والانحراف من بعد الثبات!

﴿ .. وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦].

﴿ وحصيلة التحقيق: السُّقوط لا يحتاج للكثير من الجهد،
فقط! أطلق لنفسك عنانها، فإذا بالحضيض عنوانها ..





رفقًا بقلبك

حاول أن تسيطر على مشاعرك، وتتحكم في عواطفك، فما عاد في وسعك أن تتحمل صدمات العواطف وخيبات المواقف، ولا تؤذ نفسك بالعلاقات السلبية، ولا تحرق أعصابك برقة المشاعر ودقة الإحساس المبالغ فيها كما كنت تفعل من قبل، ولا تترك قلبك كريشة في مهبّ الريح تقلبها الأحداث ظهرًا لبطن، ولا تبك على فراق الراحلين، وتُتبع قلبك الشارد عنك ولو كان من أقرب الأقربين، ولا تتمزق لفراق أحدٍ غاب - باختياره - من حياتك، ولا تجمع ببيضك في سلة واحدة، ولا تجعل أحدًا من الناس كعصانك التي تتوكأ عليها حتى لا تسقط على قفاك إذا غاب عن عينك، ولا تذرف دموعك الغالية لمن لم يهتم بها، ولا تبسط كفك الممتدة لمن ييصق فيها، ولا تُقبل على من ولأك ظهره، ولا تفتدٍ من جعلك من سقط متاعه، ولا تختزل حياتك في أحدٍ أبدًا، وتسلم قلبك لمن يعذبه، وتنشغل بمن جعلك آخر اهتمامه وأوّل مهملاته،

وَلَا تَعِشْ كُلَّ لِمَنْ لَمْ يَهَبْكَ بَعْضَهُ، وَتَبْنِ مِنْ يَرِيدُ هَدْمَكَ،
وَتَعْطِ مَنْ يَتَلَذَّذُ بِحَرَمَانِكَ، لَا تَبْكِ عَلَى مَنْ فَرَحَ فِي حَزْنِكَ،
وَتَشْتَقِ لِمَنْ سَعَادَتُهُ فِي غِيَابِكَ، وَتُضْحِكْ لِمَنْ ضَحَّى بِكَ،
وَلَا تَقْبَلْ أَبَدًا أَنْ تَكُونَ كَمَا مَهْمَلًا فِي مُؤَخَّرَةِ الرُّكْبِ، وَذِيلِ
الْقَافِلَةِ، وَمَعَ حُثَالَةِ الْإِنَاءِ وَدُزْدِيِّ الزَّيْتِ..

إِذَا الْمَرْءُ لَا يَرَعَاكَ إِلَّا تَكَلُّفًا

فَدَعُهُ وَلَا تُكْثِرْ عَلَيْهِ النَّأْسُفَا

فَفِي النَّاسِ أَبْدَالٌ وَفِي التَّرِكِ رَاحَةٌ

وَفِي الْقَلْبِ صَبْرٌ لِلْحَبِيبِ وَلَوْ جَفَا

فَمَا كُلُّ مَنْ تَهَوَّاهُ يَهْوَاكَ قَلْبُهُ

وَلَا كُلُّ مَنْ صَافَيْتَهُ لَكَ قَدْ صَفَا

إِذَا لَمْ يَكُنْ صَفْوُ الْوُدَادِ طَبِيعَةً

فَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ يَجِيءُ تَكَلُّفَا

وَلَا خَيْرَ فِي خِلٍّ يَخُونُ خَلِيلَهُ

وَيَلْقَاهُ مِنْ بَعْدِ الْمَوَدَّةِ بِالْجَفَا

وَيُنَكِّرُ عِيشًا قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ

وَيُظْهِرُ سِرًّا كَانَ بِالْأَمْسِ قَدْ خَفَا

سَلامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَا

صَدِيقٌ صَدُوقٌ صَادِقُ الْوَعْدِ مُنْصِفًا^(١)

فصحتك ما عادت تتحمل ضغوط الحياة، وقلبك المكلوم ما غدا فيه موضع للجراح، ونفسك الموجوعة ما صارت تطيق الانكسار، فأدر ظهرك لمن لا يستحقُّك، وتجاهل من لا يراك شيئاً، وتَغَابَ مع من يتحدلق عليك، وغَضَّ الطرف عَمَّن يريد الإساءة إليك، ولا تُبالِ بمن لست على باله، وتعامَ عَمَّن يختنق بمدحك، وتجاهل من يحترق بنجاحك، ولا تخسر نفسك لتكسب غيرك، وأعرض عمن لا يحفل بوجودك ولا يحتفي بحضورك، وما بقي لك من الحياة فاجعله لك وحدك، ولا تبعثره لأحد سواك، ولا ترض مطلقاً أن تكون على قائمة الانتظار ولائحة الاحتياط ودائرة الاحتمال، ولا تقبل على نفسك بالإهانة والإذلال مهما كانت الأحوال، فلن يركب أحدهم على ظهرك إلا إذا انحنيت له، ولن ييصق في كفك إلا إذا توسلت وذلته وصلته، ولن يرمي بك في سلة المهملات إلا إذا أرخصت نفسك له وأهنت ذاتك لأجله، ولن يركلك بقدمه إلا إذا هويت لتقبيلها..

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص:).

ولا يمنعك تجاهلهم لك وغفلتهم عنك أن تعاملهم بالحسنى، وتحسن إلى كل من يلقاك منهم، وتضع بصمتك الجميلة في قلوبهم، وتترك أثرك الطيب في حياتهم، وترسم بلمستك الحانية معالم أخلاقك في تعاملك معهم، ولكن لا تحترق من الداخل بسببهم وتشعل النار في جوفك من أجلهم، وتذهب نفسك حشرات عليهم، ولا تبني كيان أحدٍ منهم أبدًا على أنقاض بقاياك، ولا تُشيد مجد أحدهم على بقايا كرامتك..

﴿وَمُلَخِّصُ الْبَحْثِ: نفسك ميدانك الأول، فلا تجعلها آخر شيء تدافع عنه، وذاتك حصنك الحصين فلا تهدمها من الداخل..﴾



الاشتغال بالجدال

لا يختلفُ كثيرًا من يدخل البحر ويرجو النجاة من البلل،
ويضع أصبعه في فم الذئب ويأمل في السَّلامة من الأنياب،
ويلقي بجسده في أتون النَّار ويطمع في الخلاص من الحريق،
عن ذلك المحبُّ للنَّقاش العقيم، العاشق للمراء الدائم، المشتغل
بالجدال المتواصل، وهو يأمل في السَّلامة من ارتفاع الضغط،
والتهاب القولون، وعلو السُّكَّر، وقرحة المعدة، وأوجاع الصُّداع،
مع ما يحدث في الكثير من النقاشات من اختلاف القلوب،
وتكدُّر الخواطر، وضيق الصُّدور، وحصول القطيعة، وحدوث
الخصام، والقليل من الحوارات التي تسلم من هذه اللوازم..

فلا تنشغل بشؤون الآخرين ولو كانوا أحبَّ إليك من
نفسك، وتجتهد - حدَّ الاحتراق والانسحاق - في إقناع غيرك
برأيك، وتدخل في خصومات جديدة، وتشارك في نقاشات
عقيمة، وتُسهم في معارك خاسرة، وتخوض في جدليات فارغة،

وتناقش في مواضيع سخيفة، فأربع على نفسك قليلاً، فلن
تستطيع تغيير العالم، ولست مطالباً باختراع العجلة من جديد،
واكتشاف رأس الرجاء الصالح، والإتيان بما عجز عنه الأوائل..
حاول أن تعيش راضي القلب، خالي البال، مرتاح الضمير،
هادئ النفس، مستقرّ الفؤاد، بلا فواجع ومواجع، وبدون
صراعات ونزاعات، ومن غير مُناكفات وسجالات..

شارك بهدوء في طرح رأيك إذا سُئلت عنه، وانصح برفق
إذا دعت الحاجة، ووجّه بحكمة ما أقبلت إليك الوجوه، واكتفِ
بما مضى في حياتك من حوارات ساخنة، وجدالات جادة،
وصراعات حادة، ونقاشات ملتهبة، فليست مهمتك إقناع العالم
بوجهة نظرك ولا أن يكون الناس طوع أمرك، وتخلّ عن فكرة
الوصاية على رأي من تحاوره، وحثمة الانتصار على من
تناظره، وضرورة إقناع المناقش بفكرتك المدهشة، ولا تُوهِم
نفسك بأنك دائماً على صواب واضح وحقّ أبلج وأن غيرك
حتمًا على خطأ فاضح وباطل لجلج، ولا تقنع عقلك بأن رأيك
مع مخالفيك كورقة مصحف على قارعة الطريق، وطُهر قديس
في بيت زنديق، وجوهرة في كفّ أخرق، ولا تُناقش من
لا يحفل بالحقائق، ولا يعتني بالعلم، ولا يعنيه الانتصار

للمعلومة الصواب، فتهدى جواهرك لمن يرميها في الوحل ويلقيها في الثراب، فإمكانك أن تُورد الحصان حوض الماء ولا يمكنك إرغامه على الشرب منه، وبوسعك وصف العلاج للمريض وليس في قدرتك حصول الشفاء به..

قل لنفسك الجامعة للمحاجة: لقد حان أوان الراحة من مكابدة الخصوم ومراغمة الأنوف ومجالد المنافسين ومقارعة المناوئين، وتصالح مع نفسك أولاً، وأرح سمعك من طبول الحرب، وأنفك من رائحة البارود، وعينك من رايات الفصائل، وقلبك من معاندة الغرماء ومكايدة الأعداء، ولا تكن قذاة عين لمن يجالسك، وعقدة منشار لمن يعاملك، وقاصمة ظهر لمن يعارضك، وغصة حلق لمن يحاورك..

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْزُمُ عَلَى النَّارِ، وَبِمَنْ تَحْزُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنٍ سَهْلٍ**»^(١).

وأقنع نفسك بأن الانتصار الحقيقي إنما يبدأ بالانتصار على النفس، والسيطرة على ما بين الضلوع، وأن من المروءة ترك

(١) رواه الترمذي وحسنه، انظر: صحيح سنن الترمذي (٢٤٨٨).

المراء، ومن تمام العقل البعد عن الجدال بالجهل، وأن الدنيا ليست ميدان حرب، وحلبة صراع، وساحة معركة..

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيمٌ بيتٍ في ربضِ الجنةِ لمن تركَ المراءَ وإن كان مُحِقًّا»^(١).

لقد آن لك أن ترتاح من جلد الذات بالنَّدَم أو جلد الغير بالتُّهم لتنتصر لرأي رأيته واختيار اصطفيته، واترك أصحاب القناعات الخاطئة يذوقون مرارتها إذا عاندوك، وكُفَّ عن مراغمة الأنوف ومقاطعة الكفوف، فربح القلوب أعظم من ربح المواقف، وصحَّتْ رأس مالك، فلا تخسرهما مقابل قراراتٍ يجوز فيها الخطأ والصواب، وآراءٍ قابلة للأخذ والرد، واختياراتٍ يمكن فيها القبول والرَّفْض، ومواقفٍ تحتمل اختلاف وجهات النظر..

﴿ **وفصل الخطاب:** لا تُدخل أنفك في عِشِّ الدبابير فلها أنوف لاسعة!



(١) رواه الترمذي، انظر: صحيح سنن أبي داود (٤٨٠٠) وحسن إسناده الألباني في حجة النبي ﷺ (ص: ٢٤).

حسن الظن

إِنَّ الرُّضَا بالقضاء والطَّمَع في فضل الله تعالى والأنس بمعِيَّتِه وعونه ومدده، وتوقُّع الأفضل في المستقبل من أعظم أسباب راحة البال وطيب الحال، وهو ما أنت في أمْس الحاجة إليه في هذه الفترة من حياتك..

الخير كالطَّيْر الحرّ؛ إن تودّدت إليه سرُّ، وإن توجست منه فرّ، وكالثدي في فم الرضيع إن استدرّه درّ، وإن تركه قرّ، وكالبعير الشارد إن استعطفته أقبل، وإن أجفلته رحل..

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ٨٧].

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: قسماً بالله ما ظنُّ أحدٍ بالله ظناً؛ إلّا أعطاه ما يظنُّ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني»^(١).

(١) صحيح البخاري (٧٤٠٥) وصحيح مسلم (٢٦٧٥).

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي؛ إن ظنَّ خيراً فله، وإن ظنَّ شراً فله»^(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَبْلَ مَوْتِهِ بثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ وَعَلَيْكَ»^(٢).

القلق والخوف والاكتئاب والتوتر مُوقِدَاتٌ لِلنَّارِ فِي صَدْرِكَ، مُشْعَلَاتٌ لِلْأَسَى بِقَلْبِكَ، وَلَا بَدَّ أَنْ تَطْفِئَ حَرَّهَا بِبِرْدِ الْيَقِينِ وَحَسَنِ الظَّنِّ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَتُذْهِبَ مَرَارَتَهَا بِحُلَاوَةِ الْإِيمَانِ، وَتَقَاوِمَ جَزَعِ النَّفْسِ وَاضْطِرَابِهَا بِطُمَأْنِينَةِ الرِّضَا وَسَكِينَةِ الْقَنَاعَةِ وَحَسَنِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى..

فَلَا تُحْمَلْ ظَهْرُكَ مَا لَا تَطِيقُ، وَتَكْلُفْ نَفْسَكَ مَا لَا تَحْتَمِلُ، وَتَعَنَّ قَلْبَكَ بِمَا لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ، وَتَضَعْ هُمُومَ الْعَالَمِ فَوْقَ رَأْسِكَ، وَتَحْشُصْ صَدْرَكَ بِمَوْجِبَاتِ الضِّيقِ وَالْكَدْرِ، وَلَا تُزْبِ وَحْشَ الْقَلْقِ بَيْنَ ضُلُوعِكَ لِأَنَّهُ إِذَا جَاعَ أَكَلَكَ، وَلَا تُسَلِّمْ نَفْسَكَ لِمَتَابَعَةِ الْأَخْبَارِ الْمَزْعُجَةِ حَتَّى لَا تَسْقِيَ بِذُورِ الصَّبَّارِ فِي دَاخِلِكَ فَيُؤْذِيكَ شَوْكُهَا، وَلَا تَمْضُ كَالضَّرِيرِ الَّذِي لَا يَفْكَرُ إِلَّا فِي سَوْءِ

(١) صحيح البخاري (٧٤٠٥) وصحيح مسلم (٢٦٧٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٧٧).

المصير، ويتوقع السُّقوط في كلِّ حفرة ومع كلِّ خطوة، فإذا لم تسقط قدمه سقطت لحظة الراحة منه في حفرة التَّوقعات المؤذية والتَّوهمات المردية، فيموت قبل الموت، ويغيب عن واقع الحياة قبل وقوع الوفاة، ولا تستغرق في الاهتمام بالأجزاء الصغيرة في الصورة الكبيرة، وتستهلك جهدك في متابعة دقائق الأحداث، وتتعلم في ملاحقة الأشياء المزعجة في حياة من تحب، وتحاول أن تتدخل في متاعب غيرك بالقدر المُتعب لك وله حتى لا تعيق مجرى الماء من الجريان فيغدو كالفيضان، ودع الحياة تمضي كما هي دون الكثير من المماحكة والملاحقة، ولا تُدقق في كُلِّ شيء وتُحقِّق في كُلِّ حَدَثٍ، فهذا أنت ذا بخير بعد العديد من الأحداث التي بك مرّت في مسيرتك، وقد نجاك الله مما كنت تخافه، وحماك مما كنت تتوجَّس منه، وكفاك الكثير من الشُّرور التي كنت تحذرهما..

دعك من الخيال المريض الذي يغمسك في بحر الأوهام المؤذية، فليس لزاماً أن من تأخَّر عليك وقع عليه حادث، ومن لم يتصل بك مريض، ومن غاب عنك وقعت له مصيبة، ومن طرق بابك لديه ما يحزنك، ومن تواصل معك عنده ما يخيفك..

الحياة ليست بهذا السوء، والأقدار ليست بهذه القسوة!
 سَهَرَتْ أَعْيُنٌ وَنَاتَ عَيُونٌ فِي أُمُورٍ تَكُونُ أَوْ لَا تَكُونُ
 إِنْ رَبًّا كَفَاكَ بِالْأَمْسِ مَا كَانَ سَيَكْفِيكَ فِي غَدٍ مَا يَكُونُ^(١)

حياتك من صنْع أفكارك، وتخييلاتك من حياكة يدك،
 وواقعك من نسج تصوراتك، ومصائبك من جزأ توقعاتك،
 ورزاياك بسبب أوهامك، فالبلاء مُوَكَّلٌ بالمنطق، والبليّة مولعة
 بمن يستشرف لها، مشغوفة بمن يتوقعها..

لَا تَنْطِقَنَّ بِمَا كَرِهْتَ فَرَبِّمَا عَبَثَ اللِّسَانُ بِحَادِثٍ فَيَكُونُ^(٢)

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَا تَسْتَشْرِفُوا الْبَلِيَّةَ؛ فَإِنَّهَا
 مُوَلَّعَةٌ بِمَنْ تَشَرَّفَ لَهَا، إِنَّ الْبَلَاءَ مُوَلَّعٌ بِالْكَلِمِ^(٣).

وعنه رضي الله عنه، قال: الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْقَوْلِ^(٤).

(١) تنسب للإمام محمد بن إدريس الشافعي.

(٢) المقاصد الحسنة للسخاوي (ص: ٢٤٢) وجمهرة الأمثال لأبي هلال
 العسكري (٢٠٧/١).

(٣) مكارم الأخلاق للخراطي (ص: ١٣٨).

(٤) الزهد للإمام وكيع (ص: ٣١١) والمصنف لابن أبي شيبة (١٣٠/١٣)
 وصحح إسناده الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٩٥/٧).

وعنه عليه السلام أنه قال: البلاء موكل بالمنطق، ولو سخرت من كلب، لخشيت أن أحولَ كلبًا^(١).

وعن إبراهيم النخعي أنه قال: إني لأجد نفسي تُحدثني بالشيء، فما يمنعني أن أتكلّم به؛ إلا مخافة أن أبتلى به^(٢).

وحكي أن المؤمل بن أميل الشاعر لما قال يوم الحيرة:

شفّ المؤمل يومَ الحيرة النَّظْرُ

ليتَ المؤمل لم يُخلَقْ له بصرُ

عمي، فأتاه آتٍ في منامه، فقال له: «هذا ما طلبت»^(٣).

وقال مجنون بني عامر في ليلى:

فلو كنتُ أعمى أخِطُ الأرضَ بالعصا

أصمّ فنادتني أجبتُ المناديا

فعمي وصمّ، وذهب بصره وسمعه^(٤).

(١) كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٢٩٠).

(٢) الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا (ص: ١٦٩).

(٣) معجم الأدباء؛ لياقوت الحموي (٢/ ٦٢٦).

(٤) الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء لمحمد بن عمران بن موسى

المرزباني (ص: ٢٦٦).

وَرُوي أن رجلاً من النصارى - وكان بالمدينة - إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: «حُرِقَ الكاذب»، فسقطت في بيته شرارةٌ من نار وهو نائم، فتعلقت النار بالبيت فأحرقتة، وأحرقت ذلك الكافر معه؛ فكانت عبرة للخلق، «والبلاء موكل بالمنطق»^(١).

وولّى ابن حفصون - أحد أشهر معارضي سلطنة الدولة الأموية في الأندلس - قائده عيشون الملقّب بالخير على مدينة «رية»، فسار إليه الأمير المنذر بن محمد ليقاتله، فقال عيشون لأصحابه: إذا المنذرُ ظفر بي، فليصلبني بين خنزيرٍ وكلب؛ دلالةً على استهانتة به، ويقينه من الانتصار عليه، فحاصره المنذر حتى عجز أهل «رية» مما حلّ بهم، فسلموا إلى الأمير المنذر «عيشون»، فوجه به إلى قرطبة، وصلبه وعن يمينه خنزير وعن يساره كلب كما قال^(٢).

فلا تَسْتَدِنْ المصائب بكثرة توقعها، وتستجلب الأحزان بطول ترقّبها، وأعظم الطمع فيمن لا ترى الخير إلا منه،

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١٣٩/٢).

(٢) مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار لأبي عبد الله بن عسكر (ص: ٣٣٠).

ولا يأتيك المعروف إلا من لده، ولن تُصيب الإحسان إلا من
جود خزائنه، وأحسن الظن به وترقّب حُسن تقديره وتديره
وتيسيره لكلّ جميل في حياتك..

﴿ ونخبة الفكر: أنت سليل ظنونك: فمن ساءت ظنونه
ساءت أفعاله، ومن حسنت ظنونه حسنت أعماله..



همم وقمم

تَجَارُ التُّبْرَ لَا يِعْبَأُونَ بِالتُّرَابِ، وَبَاعَةَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ
لَا يَلْتَفِتُونَ لِلْحَجَرِ الْمَزِيَّافِ، وَجَامِعُو اللَّوْلُؤَ وَالْجَوْهَرَ
لَا يَجْمَعُونَ الصَّدْفَ وَالْخَزْفَ؛ لِهَذَا فَأَصْحَابُ الْهَمِّ الْعَالِيَةِ
لَا يَرْضُونَ بِالْمَحْقَرَاتِ، وَأَهْلُ الْبَأْسِ الْكَبِيرِ لَا يَقْبَلُونَ مِنْ
الْغَنِيمَةِ بِالْيَسِيرِ، وَقِرْنَاءُ الْمَجْدِ لَا يَرْضُونَ مِنَ الْغِيَابِ بِالْإِيَابِ،
وَذَوُو النُّفُوسِ الْكَبِيرَةِ لَا يَقْنَعُونَ بِالْأَحْلَامِ الصَّغِيرَةِ، وَأَرْبَابُ
الْعِظَائِمِ وَالْعِزَائِمِ لَا يَسْتَسْلِمُونَ لِلْهَزَائِمِ..

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَخَلَقَ الْخَلَائِقَ طَرَائِقَ قِدْدًا،
وَرَفَعَ بَعْضَ الْمَوْجُودَاتِ فَوْقَ بَعْضٍ، وَجَعَلَ بَعْضَ الْمُقْتَنِيَاتِ
أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ، فَمَحَالٌّ أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ سَوَاءً، بَلْ تَتَفَاضَلُ
فِيمَا بَيْنَهَا كَتَفَاضَلِ الْغَالِي وَالرَّخِيسِ وَالنَّفِيسِ وَالْخَسِيسِ..

الْعَاقِلُ يَأْخُذُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَفْضَلَهُ، وَيَسْتَمِعُ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُ
أَحْسَنَهُ، وَيَعِدُّ الرَّأْيَ فَيَخْتَارُ أَقْوَمَهُ، فَجَبَلَ الْعَمْرَ قَصِيرَ لَا يَمْتَدُّ،

وفجأة الانتقال سريعة لا تتوانى، وفجعية الرّحيل عجلي لا تتأخّر، والمُشغلات أكثر من أن تُحصّر، وما يفتّ في العضد ويقعد بالمجتهّد أكثر مما يُنشِط الخامد الكسلان ويوقظ الخادر النّعسان، ومن يُعجزون أكثر ممّن يُحفّزون، وللنّفس إقبال وإدبار، وانبساط وانقباض، وفترة وشرة، وحور وكور، وقيمة الإنسان ما يحسنه، ومقدار ربحه بمقدار حسن استثماره وجودة اختياره..

إِذَا هَبَّتْ رِيَا حُكَّ فَاعْتَنِمَهَا فَعَقَبِي كُلَّ خَافِقَةٍ سُكُونُ
وَلَا تَغْفَلْ عَنِ الْإِحْسَانِ فِيهَا فَمَا تَدْرِي الشُّكُونُ مَتَى يَكُونُ
وَإِنْ دَرَّتْ نِيَا فُكَّ فَاحْتَلِبَهَا فَمَا تَدْرِي الْفَصِيلُ لِمَنْ يَكُونُ^(١)

ومن أدرك أنه لم يبق في عمره كما ذهب يجب عليه أن يكون كحامل المتاع في وقت الفزع لا يأخذ معه إلا ما خفّ وزنه وقلّ حجمه وغلا ثمنه وارتفعت قيمته، والبواقي من العمر تحتاج لفطنة التّاجر في زمن المواسم، وعزيمة المُسابق عندما يصكّ سمعه لهث الملاحق..

والمؤمن حقاً والمسلم صدقاً يجعل بين عينيه يوم التّغابن، وعلى باله يوم الحسرة، ويوقن بأنّ الجنة درجات بعضها فوق بعض، وأنّ الرّقي في درجاتها والتّفاضل بين طبقاتها يعتمد بعد

(١) تنسب لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) وكذلك للشافعي (رحمّه الله).

رحمة الله تعالى على العمل الصَّالح، فمن زادت حسناته ارتفعت درجاته، ومن كثر ثوابه سمت منزلته وعلت مكانته، ومن سبقت له من الله الحُسنى في الدنيا بالعمل الصَّالح سبقت له منه الحسنى في يوم القيامة بالنَّجاة من سخطه وعقابه، وشديد حسابه، وأليم عذابه..

إِنَّ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَفُوتُونَ اللَّحْظَةَ وَلَا يَفْرُطُونَ فِي الدَّقِيقَةِ حَتَّى يَوْقِعُوا فِيهَا مَا يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، حَتَّى لَوْ أَرَادُوا الْمَزِيدَ مِنَ الْعَمَلِ لَمَا وَجَدُوا مَزِيدًا مِنَ الْوَقْتِ، وَمِنْهُمْ حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، «قَالَ فِيهِ الْإِمَامُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ قِيلَ لِحَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ: إِنَّكَ تَمُوتُ غَدًا مَا قَدَّرَ أَنْ يَزِيدَ فِي الْعَمَلِ شَيْئًا^(١)».

يقول الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ معلقاً على ذلك: كانت أوقاته معمورة بالتعبد، والأوراد^(٢).

وقال موسى بن إسماعيل: لو قلت لكم: إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكاً، لصدقت، كان مشغولاً إما أَنْ يُحَدِّثَ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم (٦/ ٢٥٠) وتذكرة الحفاظ وذيلوله للذهبي (١/ ١٥١).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٤٤٧).

أو يقرأ أو يُسَبِّح أو يُصَلِّي، قد قَسَمَ النهار على ذلك. وقد مات رَحِمَهُ اللهُ فِي الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ^(١).

وكان صفوان بن سليم قد تَعَقَّدَتْ ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: «القيامَةُ غَدًا» ما وجد متزيرًا.... وكان يقول: «اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي»، وقال أنس بن عياض: رأيت صفوان بن سليم، ولو قيل له: «غَدًا القيامَةُ» ما كان عنده مزيدٌ على ما هو عليه من العبادة^(٢).

وهذا أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللهُ يقول عن نفسه: لو قيل لي: إن جهنم تُسَعَّرُ ما استطعت أن أزيدَ في عملي^(٣).

وكذا منصور بن المعتمر رَحِمَهُ اللهُ لو قيل له: إن ملك الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل، فقد كان يصلي من طلوع الشمس إلى أن يصلي العصر، ثم يجلس يسبح في مصلاه إلى المغرب^(٤).

(١) ميزان الاعتدال للذهبي (٥٩١/١) وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٢٥٠/٦) وصفة الصفوة لابن الجوزي (٢٥٤/٣).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٣٤٦/١).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زياداته على الزهد (٦٥١/١) وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٢٤/٢).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥٨/٦).

وهذا عبد الرحمن بن أبي أنعم البجلي لو قيل له: إن ملك الموت قد توجه إليك ما كان عنده زيادة في العمل^(١).

وهذا ابن أبي ذئب قرين الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ من علماء المدينة، كان يُصَلِّي ليله أجمع، ويجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غداً ما كان فيه مزيد من الاجتهاد^(٢).

وكان سليمان التيمي رَحِمَهُ اللهُ وهو من كبار أئمة التابعين، ومن عبّادهم يصفه حماد بن سلمة رَحِمَهُ اللهُ فيقول: ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله فيها إلا وجدناه مطيعاً، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصلياً، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئاً، أو عائداً، أو مشيعاً لجنائز، أو قاعداً في المسجد، قال: فكنا نرى أنه لا يُحسن يعصي الله^(٣).

﴿وجملة القول: لو قيل لك: إن القيامة تقوم غداً، ماذا كنت ستصنع اليوم؟! افعله الآن، ولا تقل: فات الأوان، فالوقت حان..﴾

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (١/١٤١).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٤/٢٠٣).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/٢٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/٢٩٧).

تاريخ الاسلام للذهبي (٩/١٥٧).

القناعة

في عطاء الله الواسع ما يقضي الحاجات، وفي كرمه الفياض ما يُغري الطالبين، وفي جوده العظيم ما يُحقّق الآمال، وفي سوابغ فضله ما يرضي القلوب الشَّغوفة بالتَمَنّي ويكفي النُّفوس الرَّاغبة في المزيد من المتاع، وفي فيوض رزقه ما يملأ يدك بالخير الكثير، فلا تمدّن عينيك إلى أيدي النَّاس، وتنظر في أملاك غيرك، وتذهب نفسك حسرات على ما فات عليك، واقنع بما آتاك مولاك، واحمد الله على عطاياه الواسعة وآلائه الماتعة، فالرِّضا بالقضاء؛ جنة الله في قلوب عباده، وثمرته الدانية لأحبابه، ونعيمه المعجَّل لأوليائه، وجائزته السَّريعة للمطمئنة نفوسهم بعبائهم وجزائهم ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ليس هناك أكثر بؤساً من إنسان بلا رضا، ناغم أبداً، ساخط دائماً، متأفّف من حظّه، متبرّم من قدره، متذمّر من نصيبه، بطنه

لا تشبع، ونفسه لا تقنع، وقلبه لا يشكر، ولسانه لا يذكر،
لا يستشعر قيمة ما لديه، ولا يدرك عظمة ما أفضل الله به عليه،
ولا يرضى بما قسم الله له..

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه**»^(١).

لا تلهث في طلب متاع الدنيا فإنه كهشيم ذابل، ولا تخلد
نفسك لحطامها الفاني فإنك عنها راحل، وتركن للنعيم الهالك
فإنه - وإن كان مغرياً - إلا أنه عرض زائل، ولا تأس على ما لم
يكتب لك منها فإنه متاع منقطع، وتلهث في طلب المزيد من
نعيمها فإنه - وإن قلّ أو كثر - إلى فناء، واحذر من إقبالها عليك
فإنها كغاوية مغرية تغرّك بريبتها وتجذبك بفتنتها حتى تُوقعك
في حباللها، فإذا بك الحبيب المستهام والعاشق المتيمّ والمغرم
الولهان، فإذا تمكّنت منك أوقعتك في آثامها ولطّختك بأوحالها
فلم تفق من سكرتك بها وخُبك لها إلا على صيحة الموت
تدوي فوق رأسك من أحبّ أحبابك..

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغَرِّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا
يَغَرِّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

مسكين من يُوقد النَّار في صدره ويشعل الحرائق داخل
فؤاده، ويطيل التحسُّر على أحلامه الضائعة وآماله الخائبة
وأمانيه المستحيلة، ويندب حظه، ويشتكى دهره، ويبكي حاله،
ويتبرَّم من واقعه، ويتأفَّف من وضعه، ويعضُّ أصابع النَّدم على
ما فات منه وضاع عليه، وينسى ما هو فيه من خير كثير،
ويتجاهل ما أكرمه الله به من نعم لا تُحصى وخيرات لا تُعدُّ،
ويتغافل عن الكثير من الخير الذي أكرمه الله به وزواه عن غيره،
وينظر للجانب المظلم من القمر، ويصر النُّصف الفارغ من
الكأس، وينسى كم دفن من أصحابه وأقاربه وربما كان بعضهم
في ريعان شبابه وكامل قوَّته، ويتجاهل من قضوا حياتهم
محبوسين داخل أجسادهم مكبَّلين عن الحركة لما في أبدانهم
من إعاقات وعاهات، ويتغافل عمَّن قضوا سنين عددًا من
أعمارهم داخل أقفاص السُّجون لغلطة عابرة في حياتهم مرَّت
سكرتها وبقيت حسرتها، ويتعمى عن أناس كثر عاشوا سحابة
حياتهم في غربة وكربة أبعد ما يكونون عن بلادهم وأولادهم
ليفنوا حياتهم في خدمة غيرهم بأبخس الأثمان وفي أرهق
الأعمال، ولكنه لا يتذكَّر إلا الأحزان ولا يعدُّ إلا البلايا،
ولا يتكلَّم إلا عن الضيق الذي مرَّ به والحسرة المؤرَّة التي

طرقت بابه، ولذلك فهو حزين القلب مرهق الشعور مضنى
الإحساس متعب الأنفاس..

يحرمه الجشع لذّة الأنس بما في يده، ويسلبه الطمع رضى
القلب بما قُدّر له، ويمنعه الهلع متعة الاستمتاع بحياته، فمتى
يرضى عن الله ليرضيه، ويشكره ليزيده، و يعرف فضله ليعطيه،
ويقدر نعمه ليحفظها له؟!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَأْخُذْ عَنِي
هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلْ بِهِنَّ، أَوْ يُعَلِّمْ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟». قلت: أنا
يا رسول الله! فأخذ يدي فعدّ خمسًا، فقال: «اتَّقِ المحارم تكن
أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن
إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبّ للناس ما تحبّ لنفسك تكن
مسلمًا، ولا تكثر الضحك؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحْكِ تَمِيتُ الْقَلْبَ»^(١).

القناعة كنز لا يفنى، والرّضا نعيم لا يبلى، والفقر في
القلب وليس في الجيب، والغنى غنى النّفس، والسّعيد من
رضي عن الله وأرضى عنه مولاه، وما دون ذلك فغناء لا يستحقّ
العناء، وفناء لا يستأهل البقاء..

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧)، وأحمد (٨٠٩٥) وحسنه
الألباني في صحيح الجامع (٧٨٣٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»^(١).

واقِعك أفضل من واقع كثيرٍ من الخلق، وحياتك أجمل من حياة عديدٍ من الناس، ولو تأملت فيما ملكت يمينك من رزقٍ لتيقنت أنه أعظم مما كنت ترجوه، وأكثر مما تطلبه، وأنفع مما تأمله، وأوسع مما تسأله، ومهما زهدك الشيطان فيما عندك، وتاقت نفسك للمزيد منه، إلا أنك في خير كثير يغبطك عليه الكثير من البشر، وتحتاج معه إلى الكثير من الحمد، والمزيد من الشكر، ورؤية منَّه الله عليك فيه، والرضا عنه - سبحانه - وبما قسمه لك من الأرزاق، وكتبه من النعم، وهَيَّأَه من الخيرات..

«قال صالح بن جناح الدمشقي لابنه: يا بني! إذا مرَّ بك يوم وليلة قد سلم فيهما دينك، وجسمك، ومالك، وعيالك، فأكثر الشكر لله تعالى، فكم من مسلوب دينه، ومنزوع ملكه، ومهتوك ستره، ومقصوم ظهره في ذلك اليوم، وأنت في عافية»^(٢).

(١) صحيح البخاري (٦٤٤٦)، وصحيح مسلم (١٠٥١).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢٢/٣).

فلا تجحد فضله، وتنكر معروفه، وتكند إحسانه وإنعامه وإكرامه، وتظل كمنهوم يطارد الدنيا بلا اكتفاء، ويأكل من متاعها بلا شبع، ويلهث خلف حطامها بلا راحة، ويتحسر على ما فاته منها بلا قناعة، وكلما زادت في يده زاد حرصه عليها وطلبه لها، كمطارد السراب لا يزيد بلحوقه إلا تعبًا، وشارب ماء البحر لا يزيد به إلا عطشًا، وطالب الأمن من جنّ الوادي فلا يزيد بهم إلا خوفًا ورهقًا..

﴿ **ولبّ الموضوع:** من راقب ما في أيدي الناس لم ير ما في يده، فعينه مشغولة بغيره، ومات همًا وقضى غبنًا، وأرداه الطمع والجشع..





لبئسما قدمت أيديهم

من الحمق أن تُلَوِّثَ البئرَ التي شَرَبْتَ منها، وتُشعلَ النَّارَ في حطبِ الشَّتاءِ عند هبوبِ جمرةِ القيظِ، وتُحطِّمَ قاربَ نجاتك وأنت تريد عبورَ النَّهرِ الجاري، وتُلقيَ الأشواكَ في طريقِ أنتَ على يقينٍ أنك ستمر به يومًا حافي القدمين...

وأحمقُ الحمق؛ أن تُفسدَ آخرتك بصلاحِ دنياك، وتُسيءَ إلى مستقبلك القادم بما تُمارسه في حاضرك من عظامِ المآثمِ ومساوئِ الجرائمِ، فتجتريحَ القبائحَ، وتقعَ في الفضائعِ، وتُسخِ بسئِ الموبقاتِ، وتتلطَّخَ برديءِ القاذوراتِ، وتُمارسَ الخطايا والرِّزايا والبلايا، وتتمنَّى على الله الأمانِي، دون توبة صادقة أو رجوع صحيح أو محاسبة للنَّفْسِ ومقاومة للهوى..

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

ومن جمع العقارب في إهابه يوشك أن تلسعه بسُمَّها، ومن نام بين الأفاعي نهشته بنابها، ومن غاص في حوض

الْتَّماسِيحَ لآكْتِهْ بِفَكُّهَا، وَهَكَذَا تَفْعَلُ الْمَوْبِقَاتُ بِصَاحِبِهَا ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ، وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وقبيح أن يسيء الإنسان لنفسه طيلة حياته بكثرة الذنوب والسيئات، وأقبح القبح أن تكون تلك السوءات في توالي دنياء، ونهاية حياته، وأواخر عمره، وخواتيم عمله، فإنما الخواتم قواصم؟ أو عواصم..

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا»^(١).

ومن المعلوم المفهوم؛ أن العصمة ماتت مع نبينا محمد ﷺ، فلا ينجو من الذنوب أحد، ولا يسلم من الوقوع فيها إنسان كائناً من كان، ومن ادّعى السلامة منها فقد أعظم الفرية وأكبر الكذبة، وواقع حاله يغني عن فضح مقاله..

والذنوب حظ المرء من دناءة الدنيا وقبحها، ونصيبه من عناء المعيشة ونكدھا، وهي سبب البلاء وباعثة الشقاء، وموجبة العقوبة وجالبة البؤس والعناء، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

(١) صحيح البخاري (٦٤٩٣) وصحيح مسلم (٢٦٥١).

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والموفق الذي إذا زلّت قدمه فيها وكبت رجله في مساويها، نزع عاجلا وأقلع سريعاً، وأحدث توبة صادقة وأوبة مخلصّة، ونقّى صحيفته منها بالاعتذار والاستغفار، وأحدث من الأعمال الصّالحات والمكفّرات الماحيات ما يستدني به مغفرة ربّه، ويستجلبُ منه عفوه، ويستوهب مسامحته، ويستجدي بها مولاه التجاوزَ عن زلّاته وسيّئاته، وفي ذلك فلاحه ونجاحه بديناه وآخرته، ونجاته وسعادته في عاجله وآجله..

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومن المؤسف المتلف أن يجعل بعض الناس فساد الكثير منهم مبرراً لخطئه وحُجّةً يحتجُّ بها على فساده، وتلك سوء ما بعدها سوء، فشدة الغفلة من غيره تستلزم شدة الانتباه منه، وكثرة اللاهين بديناهم توجب عليه كثرة الاشتغال بدينه، وعدد الساقطين في جُبِّ الرذائل يستحثه للبحث عن سُبُل السّلامة

وطوق النجاة وطرق الخلاص، فنجاة النَّاس جميعًا لن تنفعه إذا هلك، وسعادتهم كلُّهم لن ترضيه إذا شقي، وغناهم قاطبة لن يكفيه إذا افتقر..

«عن جعفر قال: دخلنا على أبي التياح نعوذه، فقال: والله إنه لينبغي للرجل المسلم أن يزيده ما يرى في الناس من التهاون بأمر الله أن يزيده ذلك جدًّا واجتهادًا. ثم بكى! ^(١)

فنفْسَك.. نفْسَك، ميدانك الأوَّل، ومضمارك الأرحب، وحقلك الأخصب، ومجالك الأحقُّ باهتمامك واغتمامك، وعنايتك ورعايتك، فإذا أذنبت فُتِّب، وإذا عصيت فاستغفر، وإذا أسأت فأحسن، وإذا سقطت فقم، وإذا فرطت فعوِّض، حتى يكون الشيطان هو الأحقرَ الأخسرَ، وأنفه في الخزي راغم..

﴿ **ولباب الفكرة:** ثمرة الغد هي: حُلْم الأمس، وزرع اليوم..



(١) كتاب المحتضرين لابن أبي الدنيا (٣٠٨) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني (٨٣/٣).

رثب همومك

محاسبة النفس على تفريطها وتخليطها من أعظم
موجبات فلاحها ونجاحها. ومراجعة إرثيف الحياة الماضية
وسجلات الأيام السابقة من أهم طرائق معرفة بواعث الحزن
ومُسببات القلق والأرق، ونظرة منك لما ذهب من حياتك
تجعلك تتساءل في دهشة بالغة؛ كيف قضيت حياتي في
هموم سخيفة وغموم تافهة واهتمامات ساذجة كانت
- بالنسبة لي - من عظام الأمور ومهمات القضايا
وجلائل المسائل؟!!

لماذا نفخت في همومي التي أحرقت راحتي وأفسدت
فرحتي، وكان قلبي يغلي منها كالمرجل وصدري يبور كالقدر
فوق الأثافي ونفسي تفور بسببها وكأنها على صفيح ساخن،
وإنما كانت في حقيقتها منتفشة كفقاعة الصابون متورمة
كنفخة البالون؟!!

ما الذي جعلني أضخم ما كان يزعجني وأفخم ما كان يقلقني ويكدّر عليّ يومي، وأعظم ما كان يقظ مضجعي ويُسهر عيني ويحرمني لذيق الكرى؟!

وإني لأرعى النّجم حتى كأنني

على كلّ نجم في السّماء رقيب^(١)

ولماذا أمضيت وقتي وأتلفت أعصابي في انتظار وقوع مخاوف موهومة ومصائب متوقّعة كانت تدور في رأسي كالإعصار وتعصف بنفسي كدوار البحار، ولم أر منها شيئاً واقعاً في حياتي؟ ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

من يعوضني عن عمري المُهدر في انتظار ما لم يُقدّر؟!

لقد كنت مسحوقاً تحت ضغط التوقّع الأسوأ والاحتمال الأوجع والترقب الأفجع لأغلب مجريات الحياة، وأدركت مؤخراً أن تلك الأوهام لم تكن توازي قيد أنملة أو تساوي حبة خردلة، وكنت أراها في عيني كالجبال الشّامخة، وتعاملت معها تعاملتي مع الأسد الضّاري والوحش المفترس، وهي - في أسوأ

حالاتها - هينةٌ لينةٌ كقطِّ أليفٍ وحملٍ وديعٍ، واكتشفت - أخيرًا - أنها زوبعةٌ في فنجانٍ صغيرٍ، وسحابةٌ صيفٍ عابرةٍ، ولكن - وللأسف! - بعد أن أخذت مني الغالي من صحَّتي وعافيتي، وحرمتني الكثير من مباحج الحياة وموجبات السَّعادة..

أَيْهَذَا الشَّاكِي وَمَا بَكَ دَاءٌ كُنْ جَمِيلًا تَرِ الْوُجُودَ جَمِيلًا
هُوَ عَبَاءٌ عَلَى الْحَيَاةِ ثَقِيلٌ مِنْ يَظُنُّ الْحَيَاةَ عَبَاءً ثَقِيلًا
وَالَّذِي نَفْسَهُ بَغِيرَ جَمَالٍ لَا يَرَى فِي الْحَيَاةِ شَيْئًا جَمِيلًا^(١)

أَيْنَ مَا كَانَ يَقْلِقُنِي وَيَفْزَعُنِي وَيَزْعَجُنِي وَيَخِيفُنِي؟! ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ، مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ذَهَبْتُ كَمَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَبَقِيتُ فِي خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ لَمْ يَمَسَّنِي سُوءٌ، وَالكثير مما كنت أتوقع حصوله لم يقع أصلًا. وإن حدث لم يدم طويلًا، وكأنَّ شيئًا لم يكن ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فهل من الحكمة أن يستمرَّ هذا النزيف المخيف في الصَّحَّةِ والمشاعر والأوقات إلى ما لا نهاية أو حتَّى وقوع النِّهاية؟!!

واطرح همومك خلف ظهرك إنَّها

نبت التَّعاسة مهد أسقام الوري

لابدَّ أن يكون لكل واحد منَّا في حياته سلَّة مهملات كبيرة
يرمي فيها كلَّ تلك المشاعر السَّلبية والهموم المقلقة
والمخاوف المزعجة التي تقتات على سعادته ومسرَّته، لأنَّ
كثيرًا منها سراب خادع، وخيال مريض، وظنون كاذبة، وحبائل
شيطان رجيم، ووساوس نفس ضعيفة..

﴿ **بيت القصيد:** بيوت العنكبوت أوهن البيوت، وهي
أقوى أسلحتها للوقية بفرائسها، وكذلك الهموم والغموم تنسج
خيوطها حول فرائسها، فلا تكن من ضحاياها..





لا تهمل نفسك

إنَّ لكل مرحلة من مراحل العمر جمالاً يليق بها، وكماً لا يناسبها، وهيئة توافقها، فليست الوسامة مرتبطة بفترة الشباب والفتوة والنشاط والقوة، وليس الجمال مقروناً بالقُدِّ الميَّاس والشعر الأسود والخصر النحيل، ولا يمكن أن يكون الحُسْنُ محصوراً في عمرٍ دون عمر. ومن الظلم الفادح أن تنفرد بالتأنيق مرحلة دون أخرى، بل للطفولة جمالٌ باهر، وحُسْنٌ أسر، وجاذبية طاغية تذهب بعقل اللبيب أحياناً وتدع الحليم حيراناً، وكذلك لمرحلة الشيخوخة والكهولة ما يناسبها من الجاذبية الحاضرة والملاحة الظاهرة، ولطالما رأت العين كبيراً في سنِّه طويلاً في عمره ساطع الوضاعة، ناصع النضارة، لامع النظافة، يسرق البصر ويأخذ بتلايبب القلب، لحرصه على نفسه، واهتمامه بهندامه، وعنايته برائحته، وحفاوته بحسن هيئته وجمال صورته، لم تزده تجاعيد الوجه إلا هيبة وجلالاً،

وبياض الشيب إلا بهجة وجمالاً، وقرب الخطوة إلا رسوًا وكمالاً، ودقة البدن إلا رقة وبهاء ورونقًا ورواء...

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فلا ترض لنفسك بدنيء الاهتمام، ورديء اللباس، وسيء الثياب، وبالي الفراش، وقديم الهندام، وسقط الطعام، بل متعها متاعًا حسنًا بما أباحه الله لها من متاع الدنيا الحلال في غير إسراف وتبذير، بدون كبر واختيال، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَابْسُوا مَا لَمْ يَخَالَطُهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ»^(١).

واحتشم عمدًا لا يليق بك من بهرج اللباس وزخرف الثياب المزري بصاحبه المخزي لمن يلبسه، وما سواه مما أباحه الله تعالى فوسّع على نفسك بما يزينك ولا يشينك، ورفّه بدنك بما يبيده في أحسن حالاته وأجمل هيئاته، وحدّث بنعمة الله قولاً وفعلاً، ولا تبخل على نفسك بما يسعدها، وتُزري بها بين من

(١) رواه النسائي (٢٥٥٩) وهو في صحيح ابن ماجه (٢٩٢٠).

يحبُّ كسرهما وقهرها، وتزوي عنها ما يزيد في جمالها وكمالها،
فأنت أحقُّ الخلق بمالك، وأولى الناس باهتمامك، وأوّل من
يجب أن ترعاه وتُغنيَ به وتتعب من أجله، فبدنك كالفرس
الأصيلة تعتليها روحك، وتسكنها نفسك، فأطب مطعمها،
وأرحب مخدعها، وأرغد عيشها، واحتف بمطالبيها، وأنزلها منازل
الكرامة، وعاملها معاملة الملوك إذا أقبلت والعييد إذا أدبرت، ثم
ارقب عدوها البهيج في ميدان الطاعة والعمل الصالح..

عن جابر بن عبد الله رضي عنهما، قال: أتانا رسول الله ﷺ
فرأى رجلاً شعثاً قد تفرّق شعره، فقال: «أما كان يجد هذا
ما يُسكنُ به شعرُهُ؟!»

ورأى رجلاً آخر وعليه ثيابٌ وسخة، فقال: «ما كان هذا
يجدُ ماءً يغسلُ به ثوبَهُ»؟! (١)

وعنه ﷺ، قال: أتني بأبي قُحافة يومَ فتح مكةَ ورأسُهُ ولحيتهُ
كالثُغامةِ بياضاً، فقال رسول الله ﷺ: «غَيِّروا هذا بشيءٍ» (٢).

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب اللباس (٤٠٦٢) والنسائي في سننه (٩٣١٢)
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٠١) والثغامة؛ نبات شديد البياض، وثمره يشبه الشيب.

فكن جميلاً في مظهرك، مليحاً في ملبسك، أنيقاً في
ملبسك، لبّقاً في حديثك، عبّقاً في رائحتك، رائقاً في صلتك،
أنيساً في مجلسك، تُحبّبك القلوب، وتألّفك الأفئدة، وتحنّ لك
الأرواح، وتأنس بك النفوس، وتنشرح بمقدمك الصدور..

﴿ وتمام الكلام: أنت أولى الناس بمالك، فلا تكن
كشجرة القرع، تُنبت في أرض وتثمر في أخرى..



الخلف السبيء

السَّلامَة من الإثم والجرم غنيمَة لا يعدلها شيء، والنَّجاة من التبعات لا يقوم مقامها غيرها من النعم، وخصوصًا حين الخروج من الدنيا بلا جناية على أحد أو إضرار بالغير..

أثنى الناس على الفاروق عمر بن الخطاب عند موته، فقال: رَاغِبٌ رَاهِبٌ، وَدِدْتُ أَنِّي نَجَوْتُ مِنْهَا كَفَافًا، لَا لِي وَلَا عَلَيَّ^(١).

وقال سفيان الثوري: رأيت شيخاً في مسجد الكوفة، يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، ولو أتاني ما أمرته بشيء، ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحد شيء، ولا لأحد علي شيء^(٢).

ألا ما أجمل المغنم، وما أقبح المغرم!

(١) صحيح البخاري (٧٢١٨) وصحيح مسلم (١٨٢٣).

(٢) كتاب قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص: ٧٩).

كم من أناس يعتمدون سياسة الأرض المحروقة بعد
رحيلهم، وزرع الألغام النَّاسفة في مساحات غيرهم قبل
مغادرتهم، وترك الأسلاك الشَّائكة الموجبة للأذى في حياة من
بعدهم، فلبئسما صنعوا، ويا قبح ما فعلوا!

فلا تحرث بذور الفتنة في قلوب أحبابك، وتضرم نار
العداوة بينهم بعد وفاتك، وتُخلف خلف ظهرك أسباب الشُّقاق
والفراق، ودواعي الخصام والخلاف، وموجبات النزاع
والصُّراع، وبواعث الفواجع والمواجع، بالجور في الوصية،
وعدم العدل في العطية، وحرمان بعضهم من الإرث الشرعي
ببعض الحيل القانونية كالبيع الصوري والهبات الجائرة في
الحياة للمناكفة وتصفية الحسابات، وتطبيق بعض الزوجات أو
إنكار الزواج بهنَّ لغرض الإضرار والحرمان من الميراث،
والميل - كلَّ الميل - لبعض الورثة على حساب البعض الآخر
مما يبعث الإحن والمحن والفتن بينهم، ويغرس بذور الحسد
والحقْد في صدورهم، ويورث الكره والبغضاء في قلوبهم،
ويؤدي إلى مصيبة القطيعة للرَّحم، وسوء التَّهاجر والتَّدابر،
وجريمة التَّنَاحر والتَّشاجر..

أزعم أنك لست في حاجة لذنوب جديدة تلحق بك في قبرك، وتأتي بها في صحائفك يوم بعثك ونشرك، وقد تكون سبباً في عقابك وموجباً لعذابك وباعثاً لسوء حسابك في يوم القيامة، فمن ذا الذي يستحق أن تُعرض نفسك لسخط الله وعقوبته من أجله؟! ومن هذا الجدير بأن تهدم آخرتك من أجل أن تبني دنياه؟! ومن الذي يستأهل أن تخسر ذاتك لتكسب رضاه؟!

إنَّكَ لَنْ تُحَاسِبَ عَلَى عَمَلِكَ الَّذِي قَدَّمْتَهُ فِي حَيَاتِكَ وَحَسَبَ، وَإِنَّمَا سُئِلَ كَذَلِكَ عَنْ عَمَلِكَ الَّذِي أَخَّرْتَهُ بَعْدَ وَفَاتِكَ ﴿يُبْنَوُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

معنى ذلك: بما قدم من عمل خير، أو شر أمامه، مما عمله في الدنيا قبل مماته، وما أخر بعد مماته من سيئة وحسنة، أو سيئة يعمل بها من بعده.^(١)

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

لا أعتقد أن أحداً من الخلق أظلم لنفسه ممن ترك بعد رحيله سيئاتٍ جارية وخطايا مستمرة وذنوباً دائمة ومعاصي متوالية

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٥٧٧).

لا تنقطع بمرور السنين، ولا تنتهي بكرّ الجديدين، تأتية في قبره - أضعف ما يكون - ولا قدرة له في إيقافها والتخلص منها، ولا طاقة له بتحمل عاقبتها وعقوبتها ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وكيف لا تكون ثقيلة وهي متواصلة وتتضاعف كل يوم؟!

فيا موقدًا نارا لغيرك ضوءها وحرًا لظاها بين جنبيك يضرّم^(١)

فلا تغامر بمستقبلك الحقيقي في الآخرة من أجل دعوى ضمان المستقبل الدنيوي لأحدٍ من الخلق، فربّما يكون أوّل خصومك يوم القيامة، وقد يكون ما ظلمت نفسك به لتحوزه له دون غيره هو سبب بلائه وعنائه ولأوائه في الدنيا، وسبب عقابك وعذابك في الآخرة..

قال سُحنون: أشقى الناس من باع آخرته بدنياه، وأشقى منه من باع آخرته بدنياه غيره^(٢).

عن ابن أبي أويس قال: سمعتُ مالك بن أنس يقول: قال ربعة الرأي: يا مالك من السفلة؟

(١) للكيميت بن زيد.

(٢) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (٣/٧٩٣).

قال: قلت: من أكل بدينه. قال: فمن سفلة السفلة؟ قال: من أصلح دنيا غيره بفساد دينه^(١).

ويروى عن الإمام أنه قال لابن وهب: أخسر الناس من باع آخرته بدينه، وأخسر منه من باع آخرته بدنيا غيره^(٢).

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى

وللمشتري دنياه بالدين أعجب

وأعجب من هذين من باع دينه

بدنيا سواء فهو من ذين أخيب^(٣)

خاب من بضاعته الخيانة!

﴿وجامع المعنى: هنيئًا لمن مات ومات ذنوبه معه!﴾



(١) المجلس الصالح والأنيس الناصح للمعافي بن زكريا (٢٠٦/١).

(٢) تدريب المدارك وتقريب المسالك لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (٦٠/٢).

(٣) ذم الرياء لأبي محمد الحسن بن إسماعيل بن محمد الضراب (ص: ٢٣٣).



الخاتمة

وها هي ذي صفحات هذا الكتاب تُطوى كما طُويت
صفحات العمر، وتنتهي حروفه كما انتهت أحداث الماضي من
حياتنا وكأنها لم تكن شيئاً مذكوراً، فإن لكل بداية نهاية، ولكل
مقدمة ختام، ولكل أجل كتاباً، ولكل أول آخرًا..

أيا غافر الذنب العظيم وساتره

ويا من له ذلت رقاب الجبابرة

فعلت بنا من أول الأمر كله

جميلاً فأتبع أول الأمر آخره^(١)

وددت في الخاتمة أن أقول لكل مهموم: لا شيء يستحق
همومك، فالدنيا كلها لا تُساوي جناح بعوضة، وأن أهتف في
سماع كل حزين: ما الداعي لهذه الدموع؟، فلا شيء يساوي كل

(١) وجدت مكتوبة بخط يد الشاعر الموريتاني محمد اليماني عند رأسه بعد
موته رَحِمَهُ اللهُ.

هذه اللوعة والأسف، وأن أقذف في قلب كل خائف: لن يقع في كون الله إلا ما قدره الله تعالى، وأقصى ما يفعله كل عدو بك؛ أن ينفذ قدر الله فيك ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وأن أخطب كل حيران: كل الخطوات في كل الدروب تائهة إلا طريقاً يوصلك لمن خلقتك وإليه مرجعك ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، وأن أناجي كل مكسور: لا تبحث عن الجبر إلا في التذلل لمن بيده مقاليد أمرك ورقاب خصومك ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وأن أسارر كل مشتاق: قلوب العباد بين أصابعه ونواصيهم في قبضته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، فاجعل الهمَّ همًّا واحدًا، وهو؛ البحث عن مرضي الله في كل شأنٍ تكون فيه، وبأيِّ عمر تكون به، ليكفيك بفضله شرُّ كل الهموم، ولتهنأ بحياة الرضا والسعادة في كل حال..

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
 «مَنْ جَعَلَ الهمومَ همًّا واحدًا همَّ المعادِ كفاهُ الله همَّ دُنياهُ
 وَمَنْ تشعَّبت به الهمومُ في أحوالِ الدُّنيا لم يُبالِ الله في أيِّ
 أوديته هلك»^(١).

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٧) والبزار (١٦٣٨) والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣٠٩/٤) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٣٠).

المُتَّبِعَ لحياة كلِّ واحد فينا يجد في مسيرته نجاحات باهرة ومنجزات ظاهرة، وقد حصَّل الكثير من الغايات المرجوة، وحقَّق العديد من الانتصارات العظيمة، وفي تاريخه ما يفخر به ويفرح بذكره ويستهج بتذكُّره، وفي المقابل ما منَّا من أحد إلا وله في حياته ثغرات وعثرات، واعترضت طريقه الكثير من العقبات التي لم يستطع أن يتجاوزها، والعديد من الإخفاقات التي وقع فيها، وهكذا تمضي الحياة ما بين فوز وخسارة، ونجاح وفشل، وعلو ودنو، وفرح وترح، وبسمة ودمعة، وكلُّ تلك المراحل في حياتنا مطايا تحملنا للدَّار الآخرة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ولو كشف الله عنا حجاب القدر لما اختار أحدنا إلا ما اختاره الله تعالى له في كلِّ تفاصيل حياته، فالله تعالى الذي يدبِّر الأكوان وما فيها وعليها، ويسخر الليل والنهار، ويقدر ما يكون فيهما من خير وشرٍّ ونفع وضرٍّ هو من علم بضغفنا فرحمنا، ورأى عجزنا فأيدنا، وأحاط بكلِّ تفاصيل حياتنا، فأفاض علينا من فيوض رحمته وعموم معونته ما ستر به عيوبنا، وفرَّج كربنا، وسهَّل دروبنا وحقَّق لنا آمالنا، فله الفضل المحض والمِنَّة المطلقة في كلِّ نجاح حقَّقناه، وبأي خير

حصِّلناه، ومع كلِّ خطوة خطوناها، ونعمة أدركناها، ولم يبق لنا إلا أن نشكره على فضله وعطائه، ونستغفره من تقصيرنا في حقِّه، وتفريطها في طاعته، ونعتذر إليه من تقحُّمنا لحدوده، ومخالفتنا لأمره، وقد عوَّدنا فضله، وربَّانا بنعمه، وجاد علينا بما نعجز عن عدِّه وحده وذكره وشكره، وما زلنا - وسنظل - نرجو تمام نعمته علينا، ونطمع في كمال فضله ومِنِّته لدينا، فلا غنى بنا عن ربِّنا وبركته وجوده طرفة عين..

وعزَّأونا حين نفارق الدنيا ومن علينا أننا نمضي إلى الله تعالى لنقف بين يديه، وهل رأينا الخير إلا منه؟ وهل جاءنا الإحسان إلا من لدنه، وهل نطمع إلا في فضله؟ وهل نرجو إلا جوده؟ وهل نأمل إلا في كرمه وحلمه ورحمته ورأفته ولطفه؟ وهو أرحم بنا مِنَّا، وأرفق بنا من والدينا، وأرأف بنا من كلِّ غال لدينا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].. وزادنا الذي نُعوِّل عليه ونستجلب به لطفه ورحمته ونستوهب به رضوانه ومغفرته؛ أننا نعبد، ولا نعبد سواه، ونوحِّده فلا نُشرك به أحدًا، وندعوه فلا تنصرف قلوبنا لغيره أبدًا، ونلجأ إليه ونعتمد عليه، ولن نجد من دونه ملتحدًا، وهو حسبنا وكافينا، وكفى بالله وكيلاً!

هذا ما جاد به الفؤاد، وسطره البنان، ونطق به اللسان،
 وفاض به الوجدان من النصيحة لمن بلغوا هذه الفترة الزمنية
 من أعمارهم والنصيحة بهم، فإن أصبت فيها خيرًا ووافقت بها
 حقًا فهو من الله تعالى الهادي لكل خير، وأشكره وأحمده على
 فضله، وما كان فيها من خطأ وزلل ونسيان، فمن نفسي
 والشيطان، وأستغفر الله منه، وإلى الله تصير الأمور، وصلى الله
 على سيدنا محمد، والحمد لله رب العالمين،،،،

وكتبه:

عبد اللطيف بن هاشم الغامدي

غفر الله له وتجاوز عنه



الفهرس



- ٥ مختصرات
- ٩ المقدمة
- ١٧ سرُّ الوجود
- ٢٠ لا تمت قبل الموت
- ٢٤ لتركبن طبقاً عن طبق
- ٢٨ العمر الجديد
- ٣٤ التكيف مع الحياة الجديدة
- ٣٧ اغسل قلبك
- ٤١ الصديق الوفي
- ٤٥ الاستثمار الحقيقي
- ٤٩ العادات السيئة
- ٥٢ كن سعيداً!
- ٥٦ تخلّص من أثقالك

- ٦٠ جدد حياتك
- ٦٤ المشروع القادم
- ٧٠ أنت أولاً
- ٧٧ أطايب الثمر
- ٨١ متعة التغافل
- ٨٥ سوء المنقلب
- ٩١ رفقا بقلبك
- ٩٥ الاشتغال بالجدال
- ٩٩ حسن الظن
- ١٠٦ همم وقمم
- ١١١ القناعة
- ١١٧ لبثما قدمت أيديهم
- ١٢١ رتب همومك
- ١٢٥ لا تهمل نفسك
- ١٢٩ الخلف السيء
- ١٣٥ الخاتمة
- ١٤١ الفهرس